٤٠
كتاب المنتدى
سلسلة تصدر عن المنتدى الإسلامي

وذكرهم بأيام الله

تأليف
محمد العبدة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ح مجلة البيان ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العبدة، محمد

وذكرهم بأيام الله (رحلة مع التاريخ الإسلامي) - الرياض

١١٢ ص؛ ١٧×٢٤

ردمك: X-٢-٩٣٦٥-٩٩٦٠

١ - التاريخ الإسلامي.

أ - العنوان

ديوي ٩٥٣ ٢٣/٢٨٣٢

رقم الإيداع ٢٣/٢٨٣٢

ردمك: X-٢-٩٣٦٥-٩٩٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أرسل الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتاب والميزان رحمة للعالمين، وطريقاً لسعادتهم في الدنيا والآخرة، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وجعل أيامه ﷺ أيام عز وانتصار وليشفي الله صدور قوم مؤمنين.

وبعد:

فإن سيرة الأنبياء وقصصهم في القرآن الكريم عبرة لمن أراد الاعتبار، وقدوة لمن رام القدوة والمثال، ومن أكثر قصص الأنبياء تكراراً قصة سيدنا موسىٰ عليه السلام، وقد طلب الله منه أن يذكّر قومه بأيام الله، حتى يقوموا بشكر نعمة الله، ولتكون المخزون التاريخي والذاكرة الجمعية لكل أمة تعتز بتاريخها وتراثها، ولما لم ينفعهم التذكير حقت عليهم كلمة الله وحاق بهم العذاب وهم لا يشعرون.

إن ذكر انتصارات أهل الحق يحيي النفوس، ويملؤها أملاً وتفاؤلاً، ويجعلها توقن أن العاقبة للمتقين مهما طال ظلام الباطل.

وهل تكون أمة دون ذكريات أو بطولات، ودون نماذج مثلى تحققت على أرض الواقع، وليست قصصاً من خيال ولا أساطير تروى؟ وهل تُعرف الأمم إلا بأيامها؟ وهل يحسن التذكير إلا بأيام الله التي انتصر فيها المؤمنون بالجهاد والعلم والعمل، وانتصروا بإقامة العدل والرحمة بين الناس؟

ليست قيمة الأمة بما أنتجت من زخارف الدنيا، بل بما كونت من رجالها أصحاب الهمم العالية، وأصحاب التفاني والإخلاص لخير الإنسانية؛ فهذا الذي تسطره الأقلام وتتفاخر به الأمم وإذا كان من العدل أن لا نبخس الناس أشياءهم؛ فمن الأولى أن لا نبخس الأمم والأوطان حقها في الذكر.

إن تاريخنا الإسلامي مفعم بالذكريات، وما أكثر ما فيه من أيام الله رغم صورة التجزؤ التي وقعت مبكرة بعد صدر الخلافة العباسية ورغم ما يؤخذ على الدول الصغيرة والكبيرة من مآخذ.

إن تاريخنا الإسلامي إذا قيس بغيره من تواريخ الأمم فإنه متفوق عليها؛ وخاصة في الجانب الحضاري الأخلاقي، وكثرة العلماء والرجال الصادقين المخلصين. بل الأمم الإسلامية من أغنى الأمم في باب الأسماء العظيمة.

أيام الله في تاريخنا نقاط مضيئة تربط الماضي بالحاضر، وتعطي الأمل للمستقبل. وإن غفلتنا أحيانا عن ذكر هذه الأيام هي التي أضعفت في

الأمم الإسلامية روح التأسي.

ركزت في هذه الرحلة مع تاريخنا على العصور القريبة؛ فإنه برغم قربها ولكنها منسية أو مهملة أحياناً؛ وأفضل أحوالها أن تذكر مجملة باهتة لا تعطي القارئ الانطباع الصحيح عنها.

أما السيرة النبوية فلم أذكر منها إلا مثالاً واحداً هو فتح مكة؛ لأن كل يوم، بل كل ساعة من أيام الرسول ﷺ هو من أيام الله: في سلمه وجهاده، في تربيته وبنائه للأمة. وكذلك لم أذكر إلا مثالاً واحداً لفترة الخلفاء الراشدين؛ لأن الفتوحات الإسلامية والانتصارات الكبرىٰ التي وقعت في أيامهم كثيرة ومعروفة.

هذه الوقفات مع أيام الله، ما هي إلا أمثلة ونماذج وليست استقصاء للمعارك الكبرى أو للإحياء الإسلامي على مر العصور، والأمة الإسلامية ليست عقيمة، وإذا رزقت الإخلاص والصواب، فإن الله - سبحانه وتعالىٰ - وعدها بالتمكين والنصر.

محمد العبدة

٢٩ ربيع الأول ١٤٢٣ هـ الموافق ١٠ حزيران ٢٠٠٢ م

(١)

من دخلها كان آمناً

(فتح مكة)

قبل ثماني سنوات من هذا اليوم خرج رسول الله ﷺ من بلدته التي كان يحبها ويحن إليها، خرج مهاجراً وحيداً مع صاحبه أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ واليوم يعود إلى مكة فاتحاً منتصراً ومعه الكتيبة الخضراء من المهاجرين والأنصار، ومعه القبائل العربية التي أسلمت في هذه الفترة، يعود إلى مكة التي أخرجته وآذته، ولكن رسول الله ﷺ كان يحبها حب الفطرة والنشأة، وحب إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وما تلك السرايا التي كان يبعث بها إلى أطراف مكة إلا إرهاصات لفتحها، وما تحويل القبلة إلا خطوة في سبيل الفتح، وما عمرة الحديبية إلا تدبير إلهي للفتح. إنه فتح ليس كالفتوح، وقائد لا كالقواد؛ فليس هناك انتقام ولا تخريب، بل كان أقصى ما يسعى إليه ﷺ أن يدخلها دون قتال، ولذلك عَمَّى أخبار الاستعداد لهذا الفتح حتى لا تقاوم قريش ويقع القتال، فهو لا يريد استئصال قريش لما سيكون لها من دور كبير في مستقبل الإسلام، وهي بلد حرام ولكن الله أذن لرسوله ﷺ في القتال

ساعة من نهار. كان فتحاً نبوياً إسلامياً، ليس فيه استعلاء، بل فيه التواضع والشكر لله سبحانه وتعالى. روى البخاري عن عبد الله بن المغفل أنه ﷺ كان وهو على مشارف مكة يقرأ سورة الفتح يُرَجِّعُ في تلاوته[1].

هدأت مكة، واجتمعت قريش تنظر ما يحكم فيها رسول الله ﷺ، ودخل الرسول ﷺ إلى المسجد، فأقبل على الحجر الأسود فاستلمه، ثم طاف بالبيت وفي يده قوس، فجعل يطعن بقوسه الأصنام ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً» والأصنام تتساقط على وجوهها، كما فعل جده إبراهيم عليه السلام حين حطم الأصنام، وتكلم رسول الله ﷺ وقريش قد ملأت المسجد حابسة أنفاسها. فقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، يا معشر قريش! ما ترون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

وصعد بلال الكعبة مؤذناً، ورجعت هذه البَنيّة رمزاً للتوحيد كما بناها إبراهيم عليه السلام، ووضع محمد ﷺ قاعدة المساواة التي لم تتحقق في عالم الأرض إلا قليلاً. إلى أن جاء محمد ﷺ وأعلنها يوم فتح مكة: «يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب» وصلى رسول الله ﷺ

(١) الترجيع: كيفية في القراءة.

الشكر لله، صلاة الفتح ثماني ركعات ضحى في بيت أم هانئ بنت أبي طالب، وهكذا تكون فتوح الإسلام شكراً لله، وتواضعاً، وليست فتوح بطر وأشر واستباحة للمدن كما يفعل باقي البشر غالباً.

عفا رسول الله ﷺ عن أهل مكة، ولكنه لم يعف عن أناس كانوا شديدي الإيذاء له وللإسلام، ورجعت مكة حرماً إلى يوم الدين، كما قال رسول الله ﷺ: «إن مكة حرَّمها الله ولم يحرِّمها الناس، فلا يحل لأحد أن يسفك فيها دماً» إنها بلد حرام؛ فهي لا تحمي الإنسان فقط، بل الحيوان والنبات، فلا يُنفّر صيدها ولا يقطع شجرها، إنها البلد الوحيد في العالم الذي يعتبر ملاذا وأمناً، إذا لجأ إليها إنسان فلا يجوز إخراجه أو سفك دمه، حتى لو كان إنساناً مباح الدم خارج الحرم، فإنه «يستفيد الأمن بدخول الحرم»[1] وإذا كانت بعض الجمعيات أو الدول تفتخر بأنها تدافع عن حقوق الإنسان، فإنها مهما عملت فلا تبلغ معشار هذه البقعة المباركة التي حرمها الله.

ذكريات الفتح يعيدها علينا شهر رمضان المبارك، ويتذكر المسلمون فتح مكة، فيذكرون ما يصنع الإيمان من معجزات.

* * *

(١) السير الكبير للشيباني ١/٣٦٦ بشرح السرخسي.

(٢)

فتح الفتوح

(نهاوند)

دعا رسول الله ﷺ الناس إلى ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم، وقام في ذلك خير ما قام به نبي، فاستجاب له أقوام وأعرض آخرون، وانضوى تحت لوائه قبائل عربية، وعادته قبائل، وكان ممن استجاب لله ورسوله قبيلة «مزينة» التي جاء وفدها الكبير إلى المدينة وعلى رأسه النعمان بن مُقرّن[1] وإخوته السبعة؛ فبايعوا وأسلموا، ولم يمض إلا قليل من الوقت حتى دعاهم رسول الله ﷺ إلى الجهاد، فاشتركوا في فتح مكة وكان النعمان يحمل راية مزينة.

توفي رسول الله ﷺ، وقام الصدّيق من بعده فأرسى قواعد الإسلام في الجزيرة العربية، ثم انطلقت جيوش المسلمين تبشر بالدعوة الجديدة، وانساح المسلمون يفتحون أرض فارس والروم، وشارك النعمان في تلك الفتوح وفي خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فتح النعمان مدينة

(١) انظر في ترجمة النعمان وقصة فتح نهاوند: الطبري ٤ / ١١٤، ط دار المعارف ـ مصر. سير أعلام النبلاء ١ / ٤٠٣، ط بيروت، تحقيق شعيب الأرناؤوط. الإصابة ٦ / ٤٥٢ ط. مصر.

(كسكر) فولاه الخليفة إمارتها، ولكن النعمان لا يحب حياة الإمارة الهادئة، فكتب إلى أمير المؤمنين أن يعفيه من هذه المهمة، وطلب العودة إلى صفوف الجهاد .

بعد انتصارات المسلمين في القادسية والمدائن، انحاز (يزدجرد) ملك الفرس إلى (نهاوند)[1]، وجمع كل ما يستطيع جمعه واعتبرها معركة مصيرية مع أصحاب هذا الدين الجديد الذي ينشر المساواة والعدل، ويزيل دول الطغيان والظلم . اهتم عمر رضي الله عنه لهذا الأمر، وجمع الناس واستشارهم، بل إنه هَمَّ أن يسير بنفسه ليكون قريباً من المعركة الفاصلة، يجمع الناس ويكون ردءاً للمسلمين، ولكن الصحابة أشاروا عليه بالبقاء، وأن يبعث قائداً يرضاه، واختار عمر النعمان بن مقرن، ودعاه لقيادة جيوش المسلمين في « نهاوند » وقال له : « إذا أتاك كتابي هذا، فسر بأمر الله، وبنصر الله بمن معك من المسلمين، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم، ولا تمنعهم حقاً فتكفّرهم . . . » .

وسار النعمان ومعه وجوه أصحاب النبي ﷺ، منهم : حذيفة بن اليمان، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وجرير بن عبد الله البجلي، والمغيرة ابن شعبة . .

وصل النعمان إلى « نهاوند »، ونظم أصحابه وهم ثلاثون ألفاً، وجعل عليهم قادة كما هو تنظيم الجيوش في تلك الفترة، فجعل على المقدمة نعيم ابن مقرن المزني، وعلى الجناحين: حذيفة بن اليمان وسويد بن مقرن

---

١ ـ في وسط إقليم فارس .

المزني، وعلى الساقة مجاشع بن مسعود.

تلك الأسماء ذات الصحائف الخالدات التي كتبت في التاريخ الإسلامي أنصع الآيات.

بدأت المعركة يوم الأربعاء[1]، وكان الفرس قد تحصنوا بخنادق حفروها وربطوا أنفسهم بالسلاسل حتى لا يفروا، وطال الحصار واستشار النعمان قادته فأشاروا عليه باستدراج الفرس والتظاهر بالهروب؛ حتى إذا ابتعد الجند عن حصونهم وخنادقهم نشبت المعركة. وافق النعمان وقال لهم: إني مكبر ثلاثاً؛ فإذا كانت الثالثة فابدؤوا القتال، ودعا النعمان: «اللهم اعزز دينك، وانصر عبادك، اللهم إني أسألك أن تقر عيني بفتح يكون فيه عز الإسلام، واقبضني شهيداً» فبكى الناس.

كانت المعركة شديدة، وفرسان المسلمين يشقون الصفوف وقائدهم النعمان، واستجاب الله دعاءه، فكان أول شهيد. لكن المسلمين انتصروا انتصاراً كبيراً، وهرب (الفيرزان) قائد الفرس فلحقه القعقاع بن عمرو وقتله وقُتل (يزدجرد) ملك الفرس، وانتهى أمر فارس بعد تلك الموقعة التي سميت (فتح الفتوح).

أخفى القائد الذي استلم الراية بعد النعمان (حذيفة بن اليمان) خبر مقتل النعمان على المسلمين. وعندما سألوا عنه قال لهم أخوه نعيم: هذا أميركم خُتِمَ له بالشهادة. وبكى المسلمون أمير نهاوند بكاءً شديداً.

كان عمر رضي الله عنه ينتظر نتائج هذه المعركة بقلق كبير، لقد

---

(١) سنة ٢١ للهجرة بعد سبع سنوات من خلافة عمر رضي الله عنه.

أسهرته ليالي نهاوند؛ فما كان يعرف النوم، يخرج إلى ضواحي المدينة في حرّها القاسي ينتظر أخبار الفتح، حتى أتاه السائب بن الأقرع، فقال له عمر: ما وراءك؟ قال: فتح الله عليك واستشهد الأمير، فقال عمر: إنا لله وإنا إليه راجعون، وعرض عليه السائب غنائم نهاوند، غنائم لا تحصى؛ ولكن عمر لم يأبه لكل هذا، واعتلى المنبر، ونعى إلى المسلمين النعمان بن مقرن المزني وبكى، وبكى حتى نشج.

وفي سهل فسيح ممتد في نهاوند، دفن النعمان ومعه جنوده الشهداء فسقى الله تلك الأرض، وبارك الله فيها.

* * *

(٣)

محطم الصنم الأكبر
(سومنات)

في أواخر القرن الرابع الهجري كانت العاصمة بغداد تئن من وطأة «البويهيين» أولئك الجفاة الذين انحدروا من إقليم (الديلم) في شمالي إيران وتسلطوا على الخلافة؛ فلم يعد للخليفة من أمر إلا المظاهر والشكليات. في هذه الفترة كان الإسلام يزدهر ويتقدم في منطقة خراسان وأفغانستان، ألم يقل رسول الله ﷺ: «أمتي كالمطر لا يُدرى آخره خير أم أوَّله؟».

ألم يَعِدِ الله سبحانه وتعالى أن لا يستأصل هذه الأمة، وأن سيكون فيها الخير والظهور حتى تقوم الساعة؟ أليس من عجائب تاريخ الإسلام أنه قلما تجده يتقهقر في جهة إلا ويتقدم في أخرى؟

في فترة الضعف التي كانت تعيشها الخلافة نبتت قوة في (غزنة)[1] على يد أسرة تركية عميدها (سُبكتكين) الذي بدأ الجهاد في أرض

(١) في إقليم أفغانستان، جنوب غربي (كابل).

الهند، ثم جاء ابنه محمود الذي أظهر كفاءة عالية وشخصية قوية، فجمع إقليم خراسان كله تحت إمرته، ووصل إلى الري وأذربيجان، وبارك الخليفة العباسي القادر بالله هذه السلطنة السنية القوية، وربما وجدها سنداً له تجاه الديلم البويهيين.

كان السلطان محمود من أولئك الملوك المتدينين الذين يهتمون بالعلم ويقربون العلماء، كما عرف بحبه لسماع حديث رسول الله ﷺ.

ولاشتهار أمر السلطان في العالم الإسلامي حاولت الدولة الفاطمية في مصر أن تستميله إليها، فارسلت أحد دعاتها (التاهرتي) ليكلم السلطان، ولكن السلطان أدرك مغزى دعوتهم، وقتل هذا الداعية، وأهدى بغلته التي كان يركبها إلى شيخ مدينة (هرات) وقال: كان يركبه رأس الملحدين فليركبه رأس الموحدين.

إن أعظم مناقب السلطان محمود هو حبه للجهاد، فكان يغزو كل سنة، وكانت وجهته الهند، وقد وفق لفتح أقاليم كبيرة وتعرف أهلها على الإسلام، ثم إنه بلغ السلطان أن الهنود يقولون: إن الذي خرب بلاد الهند وأضعفها هو غضب الصنم الكبير (سومنات) على سائر الأصنام، وكانوا يقولون عن هذا الصنم إنه يرزق ويحيي ويميت، ويحجون إليه، وقد تجمع عند هذا الصنم مال كثير، حتى بلغت أوقافه عشرة آلاف قرية، وخدمه من البراهمة ألف رجل، وبين قلعة الصنم وبلاد المسلمين مسيرة شهر، ومفازة قليلة الماء، فعزم السلطان محمود واستخار الله في غزو هذا الوثن، وسار يطوي القفار ومعه ثلاثون ألف فارس وخلق من الرَّجَّالة والمطوَّعة، وخرج

ثاني يوم الفطر سنة ٤١٦هـ، ووصل إلى قلعة (سومنات) في الرابع عشر من ذي القعدة، فلما رأى الهنود تصميم السلطان بذلوا له أموالاً جزيلة ليترك لهم هذا الصنم، وأشار بعض الأمراء معه على أخذ الأموال وإبقاء هذا الصنم لهم، فقال السلطان: إني فكرت في هذا الأمر، فرأيت أنه إذا نوديت يوم القيامة: أين محمود الذي كسر الصنم أحب إليّ من أن يقال الذي ترك الصنم لأجل ما ينال من الدنيا.

وكان على الصنم من الحلي والجواهر ما لا يوصف، فدخل السلطان وزعزع الصنم بالمعاول فخر صريعاً، ثم أحرقه.

وفرق محمود الأموال على قادته وجنوده، وعاد إلى غزنة في صفر سنة ٤١٧هـ.

أرسل السلطان محمود البشارة بهذا الفتح إلى الخليفة في بغداد، يذكر فيه ما افتتحه من بلاد الهند، ويقول: «إني فتحت قلاعاً وحصوناً، وأسلم زهاء عشرين ألفاً من عُبَّاد الأوثان». قال في «شذرات الذهب»: «لم يزل يفتح بلاد الهند إلى أن انتهى إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية»[1].

وقال الذهبي: كان صادق النية في إعلاء الدين، مظفراً، كثير الغزو، وكان مجلسه مورد العلماء، وقبره بغزنة. وقد خُطب له في خراسان

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٥٦٥، وانظر أيضاً في ترجمة السلطان محمود: سير أعلام النبلاء للذهبي ١٧/ ٤٨٣، والبداية والنهاية لابن كثير ١٢/ ٢٤.

والسند والهند وطبرستان وأذربيجان.

ولد السلطان محمود في سنة ٣٦١هـ، وتوفي يوم الخمس من شهر ربيع الآخر في سنة ٤٢١هـ. رحمه الله رحمة واسعة، وجزاه الله خيراً عن الإسلام والمسلمين.

* * *

(٤)

الإحياء السني

في عام ٤٩٢ هـ ١٠٩٩م كان الزحف الصليبي القادم من الغرب قد وصل إلى مدينة القدس التي تعرضت لمجزرة بشعة قُتل فيها عشرات الألوف في الشوارع، وذبح فيها الأطفال والنساء، وفي عام ٤٩٣هـ أباد هؤلاء الغزاة سكان مدينة حيفا وبيروت، وأفرغت من سكانها : الرملة، بيسان، طبريا . . لقد فرَّ أهلها إلى المناطق الداخلية في بلاد الشام .

وصلت أخبار هذه الفاجعة إلى العاصمة بغداد، ولكن الرد كان ضعيفاً، وأمراء المدن في بلاد الشام انشغلوا بأمورهم الخاصة وكل واحد منهم يخاف على مملكته الصغيرة . ودولة الإسماعيليين (الفاطميين) في القاهرة لا يعنيها هذا الأمر كثيراً، بل ستتعاون مع الغزاة في فترة لاحقة .

كانت رحلة العودة لاسترجاع الأرض وإخراج العدو بطيئة، كانت كمسالك الماء الذي يتسرب من هنا وهناك، ثم يتجمع ينبوعاً، ثم تجتمع الينابيع لتكون نهراً جارفاً .

وقف العلماء في وجه هذا الزحف الصليبي، يبثون بين الناس روح المقاومة، ويعيدون الناس إلى السنة بعد محاولة الدولة الفاطمية في القاهرة

نشر مذهبها الإسماعيلي الباطني. تصدى الفقيه الشافعي علي بن طاهر السُلمي (٤٣١ – ٥٠٠ هـ) لهذا الاجتياح الفرنجي، واتخذ من جامع بني أمية في دمشق مركزاً للتدريس وتأسيس النهوض، وعندما جاء السلطان نور الدين محمود واتخذ من دمشق عاصمة له، كان جو الجهاد قد تأصل في النفوس.

وفي مدينة الإسكندرية كان الفقيه المالكي الإمام الطرطوشي (٤٥١ - ٥٢٠ هـ)يدعو إلى السنة ومن تلامذته: ابن عوف الزهري الذي قام بدور مهم في بث روح الجهاد، وفي إمداد صلاح الدين الأيوبي بالأموال والرجال في صراعه مع وزير الفاطميين (شاور) المتآمر مع الفرنجة.

كانت الإسكندرية تابعة للدولة الفاطمية، ولا تقام فيها الجمع، ويعتذر الإمام الطرطوشي عن إقامته في الإسكندرية رغم وجود المنكرات ويقول: «إن سألني الله عن المقام في الإسكندرية، أقول له: وجدت قوماً ضلالاً فكنت سبب هدايتهم»[1]. ومن كبار قادة الإحياء السني المحدث أحمد ابن محمد السلَفي (٤٧٥ – ٥٧٦ هـ) وقد بنى له الوزير السني (ابن السلار) مدرسة العادلية التي كانت مركزاً كبيراً لتدريس الفقه الشافعي.

ومن هذه المسارب التي تجمعت للإحياء السني في الشام ومصر شخصية سيكون لها أثر كبير وفعال في مساعدة صلاح الدين في مشروعه الجهادي ومشروعه لتوحيد المناطق التي في بؤرة الصراع مع الصليبيين، إنه كاتب متمرن في دواوين الحكم والإدارة في القاهرة، كاتب فلسطيني من

(١) هادية دجاني: القاضي الفاضل، ٧٠، نشر مؤسسة الدراسات الفلسطينية.

مدينة عسقلان المحتلة، ومن أسرة علمية إنه عبد الرحيم البيساني الملقب بـ (القاضي الفاضل) .

ولد عبد الرحيم في عسقلان عام ٥٢٦ هـ وقد تعرضت هذه المدينة لهجمات الفرنجة من البر والبحر. وفي عام ٥٤٣هـ أرسله والده إلى القاهرة ليتدرب على الإدارة والكتابة. عمل عبد الرحيم في ديوان المراسلات ونجح نجاحا باهرا، وكانت مصر في الأعوام (٥٥٨ – ٥٦٤هـ) تتخبط في سياستها تخبطاً شديداً؛ فالمؤامرات مستمرة بين الوزراء وقصر الحكم، وبين الوزراء أنفسهم، يستعينون مرة بالصليبيين خوفاً من دولة نور الدين في دمشق، ومرة يستعينون بنورالدين أو يحاولون ضرب هؤلاء بعضهم ببعض، وبسبب الاستعانة بالفرنجة فرض عليهم الملك الصليبي (أموري) ضرائب عالية أنهكت مصر مالياً.

عاش عبد الرحيم هذه الأجواء السياسية الفاسدة، وهذه الخيانة للدين وللأمة، وعندما التقى بالجيش الشامي الذي جاء لإنقاذ مصر من الفرنجة والذي يقوده (أسد الدين شيركوه) عم صلاح الدين، تطلعت نفس هذا الكاتب لهذا التوجه الذي يقوده نور الدين من دمشق، وكانت هذه نقطة الانعطاف في حياة عبد الرحيم؛ حيث أصبح المستشار السياسي والإداري لصلاح الدين الذي تسلم الوزاة بعد عمه أسد الدين.

كان أول خطوة لإنجاز المشروع الجهادي قيام صلاح الدين بمساعدة القاضي الفاضل في إلغاء الدولة الفاطمية والارتباط رسمياً بالخلافة العباسية في بغداد. وفي رسالة من القاضي الفاضل إلى الخليفة العباسي: « ونحن

نقاتل العدوين: الباطن والظاهر ونصابر الضررين: المنافق والكافر، حتى أتى الله بأمره وأيدنا بنصره».

والعدو الباطن هم حكام مصر من الفاطميين، والظاهر هم الفرنجة. ويقول في رسالة أخرى إلى الخليفة: «فأضحى الدين واحداً بعدما كان أدياناً، والجمعة جامعة...» فهاجس الوحدة الإسلامية كان ملازما للقاضي الفاضل؛ ولذلك كانت الخطوة الثانية توحيد بلاد الشام ومصر بعد وفاة نور الدين محمود، وكانت رسائل القاضي إلى زعماء دمشق يدعوهم فيها إلى الوحدة ويمهد لمجيء صلاح الدين.

لم يكن القاضي الفاضل كاتباً ووزيراً سياسياً فحسب؛ بل كان يعلم أن قوة الدولة في العدل والعلم، فكان ينصح صلاح الدين بأن يكون على صلة بالقواعد الشعبية وبمشاكل الناس ويقول له: «يا مولانا: مظالم الخلق كشفُها أهم من كل ما يُتَقَرَّب إلى الله..» وهو الذي أنشأ المعاهد التربوية التعليمية. بعد هذه الخطوات الناجحة كان لا بد من الجهاد لتحرير الأرض المباركة وخاصة مدينة القدس؛ فكان القاضي الفاضل يشرف بنفسه على تجهيز الجيوش وما يسمى اليوم بالعمليات (اللوجستية) وأصبح جهاد العدو أكبر همّ عنده؛ فكان ينصح صلاح الدين بألاّ يتعب نفسه بضم مدينة الموصل ويكتفي ببلاد الشام ومصر ليتفرغ للفرنجة المحتلين، وكان صلاح الدين قد مرض قبل حصار الموصل، ويقول له القاضي: «يجب ألا تحارب مسلماً بعدما شفاك الله من المرض، ووجّه اهتمامك لمجاهدة الفرنج» وصلاح الدين يعلم أهمية رأي القاضي الذي يملك تصوراً استراتيجيا

لأسباب النصر؛ فكان يستشيره في كل صغيرة وكبيرة، وكان من نتائج هذا التلاحم بين القيادة العسكرية والقيادة الإدارية العلمية ومن نتائج هذا الإحياء السني والوحدة بين الشام ومصر أن بدأت الانتصارات الكبرى لصلاح الدين وأولها معركة حطين ٥٨٣هـ ١١٨٧م حين نزل صلاح الدين عن فرسه وسجد شكراً لله وبكى من فرحه بهذا النصر. وتلا ذلك فتح عكا وعسقلان، ثم إعادة القدس إلى ولاية الإسلام وكان يوماً من أيام الله.

يبقى القاضي الفاضل مع هموم الجهاد والاستفادة من الانتصارات الأولية؛ فعندما أراد صلاح الدين القيام بفريضة الحج كتب له القاضي: «إن الفرنج لم يخرجوا بعدُ من الشام، ولا سَلَوْا عن القدس، ولا وثق بعهدهم في الصلح..» ونصحه بتأجيل الحج.

ورغم هذه الانتصارات الكبيرة بقي صلاح الدين متواضعاً مع سماحة خُلُق، وإنصاف ومعرفة لفضل الذين شاركوا هذه الانتصارات. يقول لأصحابه وقواده: «لا تظنوا أني فتحت البلاد بالعساكر، إنما فتحتها بقلم القاضي الفاضل»[1].

---

(١) ابن العماد: شذرات الذهب ٦/٣٣٥.

(٥)

العلماء والأمراء

في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) انفرط عقد وحدة الأندلس، وانقسمت إلى ممالك صغيرة، كل مدينة دولة تحكمها أسرة من الأسر الأندلسية، فبنو هود في سرقطة، وبنو الأفطس في بطليوس، وبنو ذو النون في طليطلة.. وكان أوسعهم مملكة وقوة: محمد بن عبّاد صاحب إشبيلية وقرطبة، وقد تتعاون هذه الدول أحياناً أمام الزحف الآتي من الشمال (نصارى أسبانيا) وقد يختلفون، ويستعين بعضهم بالعدو لمحاربة أهل ملته وجيرانه، فالوضع العام لا يدعو إلى التفاؤل. أرسل صاحب بطليوس المظفر بن الأفطس إلى محمد بن عباد: «أيها الملك! إن الروم إذا لم تُغز غزَت، ولو تعاقدنا مخلصين فَلَلْنا حدّهم»[1].

وكان ملك الإفرنج (الأذفونش)[2] قد قوي أمره، وبدأ يزحف على المدن الإسلامية، وكانت طليطلة من أول مدن الأندلس العظيمة التي

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨ / ٥٩٥.

(٢) هكذا تذكره المصادر الإسلامية، وأما المصادر الحديثة فتذكره (الفونسو) السادس، وسنكتبه هنا كما تذكره المصادر الحديثة.

استردها الأسبان، أخذها (ألفونسو) صلحاً من القادر بن يحيى بن ذي النون بعد حصار دام سبع سنين، وكان ذلك في سنة ٤٧٨ هـ وبسبب تفرق ملوك الطوائف، فإنهم كانوا يدفعون ضريبة لـ (ألفونسو) وكان ابن عباد يدفع ضريبة أيضاً، ولكن (ألفونسو) لم يرض، وطلب المزيد من القلاع والحصون، وأرسل وفداً كبيراً إلى ابن عباد وعلى رأسهم يهودي وفرض شروطاً مذلة واستفزازية، فضرب ابن عباد رئيس الوفد على وجهه حتى برزت عيناه، ورفض هذه الشروط، وبدأ كل فريق يستعد للقتال.

سمع علماء قرطبة بما جرى، ورأوا قوة الإفرنج وضعف المسلمين واجتمعوا وقالوا: هذه بلاد الأندلس، قد غلب عليها الفرنج، لم يبق فيها إلا القليل، وإن استمرت الأحوال على ما نرى عادت الأندلس نصرانية كما كانت، وساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تنظر ما فيه المسلمون من الذلة، وعطائهم الجزية وقد رأينا رأياً نعرضه عليك، قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية (تونس وما جاورها) ونبذل لهم، فإذا وصلوا إلينا قاسمناهم أموالنا، وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله، قال: المرابطون أصلح منهم وأقرب إلينا، قالوا له: فكاتب أمير المسلمين (ابن تاشفين)[1] وارغب إليه ليعبر إلينا.

وقدم عليهم المعتمد بن عباد وهم يتكلمون حول خطر الإفرنج، فعرض عليه القاضي ابن أدهم ما كانوا فيه، فقال له ابن عباد: أنت رسولي إلى ابن

---

(١) يوسف بن تاشفين، سلطان المغرب الأقصى، وأول ملوك دولة المرابطين، وهو الذي أسس مدينة (مراكش) وكان حازماً ديناً (٤١٠ - ٥٠٠ هـ).

تاشفين، فسار ابن أدهم وأبلغ الرسالة إلى ابن تاشفين وأعلمه ما فيه المسلمون من الخوف. أدرك ابن عباد ضرورة حشد كل القوى لمواجهة نصارى الشمال، وعندما علم بعض ملوك الأندلس بعزم ابن عباد طلب العون من ابن تاشفين خوفوه وقالوا: إذا دخل ملك المغرب الأندلس أخذها وتملكها، فقال ابن عباد قولته المشهورة: «لأن أرعى الإبل خير لي من أرعى الخنازير» يقصد ـ رحمه الله ـ أنه مستعد للتضحية بملكه ويرعى الإبل عند ابن تاشفين، فإن هذا خير من أن يتغلب عليه (ألفونسو).

عندما التقى ابن تاشفين برسول ابن عباد، وكان في مدينة (سبتة) أمر فوراً عساكره بالعبور إلى الأندلس، ثم طلب بقية الجيش من مراكش حتى إذا تكاملت كل قواته عبر المضيق والتقى بابن عباد الذي أكرمه إكراماً يليق به، وأمر أن توضع (الجزيرة الخضراء) جنوبي الأندلس تحت تصرفه. وتسامع المسلمون في الأندلس بوصول ملك المغرب فخرجوا من كل البلاد يطلبون الجهاد.

علم (ألفونسو) بوصول ابن تاشفين، ومعه جيش كبير، فجمع فرسانه وسار من طليطلة، وكتب إلى أمير المسلمين يغلظ له القول ويخوفه بما عنده من القوة والعدد، فكتب إليه أمير المسلمين: (الذي يكون ستراه). فلما قرأها ارتاع لها، وعلم أنه بُلي برجل له عزم وحزم.

قام المعتمد بن عباد بتنظيم كافة الإجراءات، واتخاذ كافة التدابير مثل تنظيم الحراسة، ومراقبة تحركات العدو، وأشرف بنفسه على كل ذلك، وكان عنده شبكة استطلاع قوية أمكن لها التوغل حتى قلب معسكر

(ألفونسو) واستطاعت إنذار ابن عباد في الوقت المناسب. وفي فجر يوم الجمعة منتصف رجب عام ٤٧٩هـ بدأت معركة (الزلأقة) قرب بطليوس[١]، وتلقى ابن عباد وفرسانه الصدمة الأولى، وأحاطت جيوش (ألفونسو) به من كل مكان، وكان عسكر ابن تاشفين يبعد قليلاً، ولم يلتحم مع جيش الأندلس بعد، وصبر ابن عباد وظهرت شجاعته، وأثخنته الجراح، وطعن في أحد جنبيه، وعُقر تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدم له آخر، ثم وصلت طلائع جيش ابن تاشفين واقتحمت جيش العدو وخففت الضغط عن ابن عباد. فاستعاد ترتيب جيشه والتقى مع ابن تاشفين، وقاتل الطرفان قتالاً شديداً، وعندما حان وقت الزوال، ظهرت بوادر النصر، وولى الإفرنج ظهورهم، ونصر الله دينه، وكان نصراً مؤزراً كبيراً، ولم يبق من الإفرنج إلا القليل، تجمعوا حول (ألفونسو) وكان عدد جيشه (٤٠) ألفاً.

واستشهد في هذا اليوم جماعة من العلماء مثل ابن رميلة وقاضي مراكش أبو مروان عبد الملك المصمودي وغيرهم.

يقول الإمام البشير الإبراهيمي: «ما زلنا نلمح وراء كل داجية في تاريخ الإسلام نجماً يشرق ونسمع بعد كل خفتة فيه صوتاً يخرق من عالم يعيش شهيداً ويموت شهيداً ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق يهدي السارين..»[٢].

---

(١) تقع شمالي غرب قرطبة، على نهر (وادي آنة) قرب الحدود مع البرتغال اليوم.

(٢) الأعمال الكاملة ٤/١١٣.

لم يرض ابن تاشفين أن يأخذ شيئاً من الغنائم، وكتب بالفتح إلى بلاد المغرب وإلى مسلمي شمال أفريقيا، فعمت الفرحة في جميع البلاد، وأخرج الناس الصدقات شكراً لله تعالى.

شكر ابن عباد ابن تاشفين على نجدته للإسلام والمسلمين، وأعجب ابن تاشفين بصبر ابن عباد وحسن بلائه. وعاد أمير المسلمين قافلاً إلى بلاده. ولكن أمور الأندلس لم تستقر، والإفرنج لا يتركونه، فقرر ابن تاشفين العودة إلى الأندلس، ومحاولة توحيدها تحت قيادته، وقد جاءته الفتاوى من المشرق بانتزاع الأمر من ملوك الطوائف وتوحيد الأندلس، وكان من الذين أفتوا بذلك الإمام أبو بكر الطرطوشي، والإمام أبو حامد الغزالي[1]، وقد توحدت قيادة المرابطين ولكن لفترة مؤقتة.

* * *

(١) تاريخ ابن خلدون ٦/٢٤٩ وانظر في خبر هذه الموقعة: الكامل لابن الأثير ١٠/١٥١ ووفيات الأعيان لابن خلكان ٥/٢٨ والاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/٣٣.

(٦)

المدارس النظامية

في سنة ٤٥٧ هـ كان البدء ببناء المدرسة النظامية ببغداد، وهي مدرسة من سلسلة مدارس شملت أكثر العالم الإسلامي، فكانت النظامية في: نيسابور وأصبهان والبصرة والموصل ومرو وبلخ وهرات، ولكن مدرسة بغداد كانت أكبر هذه المدارس وأعظمها، وهي أحرى أن تسمى جامعة بغداد؛ فقد درّس فيها أبو إسحق الشيرازي كبير فقهاء الشافعية، وأبو حامد الغزالي.

من هو مؤسس هذا المشروع الكبير الذي سميت هذه المدارس باسمه وكان ينفق عليها وعلى تلامذتها؟ إنه الوزير الكبير حسن بن علي الطوسي الملقب بـ« نظام الملك » وزير الدولة السلجوقية لملوكها الأوائل: « ألب أرسلان » و« ملكشاه ».

ولد حسن بن علي سنة ٤٠٨هـ في قرية من قرى مدينة « طوس » شرقي إيران، واعتنى به والده فقرأ القرآن وتعلم الفقه والحديث، وعمل بعد ذلك في دواوين الحكم حتى اتصل بـ « داود بن ميكائيل » أخي السلطان « طغرل بك » أول ملوك السلاجقة، فلما تملك ألب أرسلان بن داود بعد

عمه طغرل بك أصبح «نظام الملك» وزيراً له، وكان السلطان من خيار الملوك محباً للعدل فيه رحمة وشفقة، كما أن نظام الملك كان من خيار الوزراء أشرف بنفسه على سياسة الدولة في الداخل والخارج، واستطاع بحسن تدبيره وسلامة تفكيره أن يجعل من الدولة السلجوقية أكبر قوة في العالم الإسلامي يومها، وقد بلغت حدودها من حدود الصين شرقاً إلى ساحل البحر المتوسط غربا.

لم يكن نظام الملك من أولئك الساسة الذي يهتمون بتثبيت نظم الحكم كيفما كانت الوسيلة، ولكنه من النوع الذي يعلم أن قوة الدولة إنما تكون بإقامة العدل وتعمير المدن، وإنشاء المدارس والمساجد والمستشفيات، وأن الآمال تنتعش والاقتصاد يقوى بإقرار الأمن وتسهيل السبل؛ وقد استطاع نظام الملك تحقيق كل ذلك خلال ثلاثين سنة من وزارته.

لم تكن شخصية السياسي الإداري عند هذا الوزير لتطغى على شخصيته العلمية، فقد كان عالماً وأديباً ومحباً للعلماء والعباد، يقربهم إليه ويستشيرهم ويسمع منهم ويشملهم برعايته، وكان إذا دخل عليه الإمام الجويني قام إليه وعظمه، هذا الإمام الذي شعر بنعمة التوافق بين العلماء والأمراء، ونعمة المنزلة العالية التي يستحقها العلماء مما جعله يؤلف كتابه العظيم: (الغياثي) في السياسة الشرعية، وقد تكلم فيه بصراحة عن واجب الحاكم المسلم، وشدد على إقامة العدل ونشر الإسلام، وطلب فيه من نظام الملك أن يقوم بمسؤولياته الكاملة تجاه المسلمين، وهو الذي أفتى نظام الملك بأن لا يحج حتى يستكمل تثبيت الدولة واستقرارها.

كان نظام الملك ديّناً خيّراً متواضعاً يحافظ على الصلوات في أوقاتها، وإذا سمع المؤذن توقف عن كل أعماله، كثير الصدقات وأعمال البر للفقراء والمساكين وهو الذي أصلح الطرق إلى مكة، واهتم بالمرافق التي تريح الناس في الحج، وفي غمرة هذه الأعمال لم ينس السياسة الخارجية؛ فقد رتب مع السلطان ألب أرسلان وسائل مكافحة الروم واهتم بشكل خاص بالمناطق الشمالية الغربية من إيران: أذربيجان وأرمينيا وشرقي الأناضول.

كان نظام الملك مع السلطان ألب أرسلان حين اصطدم مع الروم في معركة (ملاذ كرد) المشهورة؛ ذلك لأن ملك الروم (أرمانوس) استاء من قوة السلاجقة وتوسعهم في أراضي الروم، فقرر مهاجمة البلاد الإسلامية القريبة منه، فهاجم مدينة حلب وما حولها، وانتصر على أمرائها، ثم توجه شرقاً بجيش كبير جداً، حشد فيه الآلاف من الروس والفرنسيين والبلغار واليونان وعسكر في (ملاذ كرد) بالقرب من مدينة خلاط (غربي بحيرة وان في أقصى شرقي الأناضول) وكان مع ألب أرسلان جيش صغير ولم يتوقع أنه سيلتقي مع الروم وهذا الحشد الكبير. حاول ألب أرسلان أن يعقد صلحاً مع أرمانوس ويتجنب هذا اللقاء وليستعد لجولة قادمة إذا أراد ذلك أرمانوس، ولكن الأخير كان مغروراً بجيشه الضخم فرفض كل عروض الصلح، وقال لرسول السلطان: لن يتم الصلح إلا في الري (عاصمة السلاجقة).

علم أرسلان أن لا مفر من اللقاء، فأعلن بين جنوده أن الإسلام في خطر، ودعاهم إلى الاستماتة في القتال، ونصحه الفقيه محمد بن عبد

الملك البخاري البدء بالقتال وقت صلاة الجمعة فلعل دعوات المسلمين في صلاتهم أن تصيبه. أعد ألب أرسلان نفسه للموت، ونزل عن فرسه وعفر وجهه بالتراب ودعا الله سبحانه وتعالى، ثم حمل مع جنوده على الروم، وما هي إلا ساعات حتى يمنح الله النصر للمسلمين، ويُؤتى بملك الروم أرمانوس أسيراً ويقف أمام السلطان؛ فيضربه ويوبخه ويقول له: ما ظنك بي؟ قال: إما أن تقتل وإما أن تعفو وتأخذ الفداء، وما أظنك تفعل هذا، قال ألب أرسلان: ما عزمت إلا على العفو والفداء، فافتدى نفسه بمليون ونصف مليون دينار، وتم الصلح بين السلطان وملك الروم على أن يتوقف القتال خمسين عاماً وأن يرد الروم كل أسرى المسلمين، وعندما أراد أرمانوس العودة إلى بلده أعطاه السلطان عشرة آلاف دينار لنفقة الطريق.

إن موقعة «ملاذ كرد» تعتبر نقطة تحول في التاريخ الإسلامي، فهي التي يسرت القضاء على نفوذ الروم في معظم أجزاء بلاد الأناضول «تركيا اليوم» وهذا مما مهد الطريق للعثمانيين بعدئذ لفتح القسطنطينية.

وفي سنة ٤٨٥هـ في عهد السلطان «ملكشاه» ابن ألب أرسلان كان نظام الملك ومعه جنوده وحاشيته يمرون بمكان «نهاوند» فتذكر نظام الملك الشهداء في هذه البقعة وما أعطاهم الله من الأجر، وبعد مغادرته بقليل كان الوقت في رمضان جاءه بعد الإفطار شاب صغير تظاهر وكأنه يطلب شيئاً من الوزير، فلما قرب منه طعنه بسكين توفي على أثرها، وكان هذا الشاب من جنود الحشاشين الإسماعيلية الذين كان من أهدافهم اغتيال كبار الشخصيات السنية، وقد تركزوا في قلعة «ألموت» في شمالي إيران،

فكان نظام الملك أول شهيد من شهداء الدفاع عن السنة تجاه الفرق الباطنية، وكان رحمه الله يفتخر بهذا الدفاع ويستعيد قول الخليفة في بغداد له: يا حسن رضي الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك»[1].

«لم يهتد الملوك قبله الذي أشادوا القصور إلى البناء الذي يتقاصر أمامه كل بناء.. إنها المدرسة وسبق هذا الوزير للمنقبة التي تغطي المناقب، وهنالك علمت بغداد أن كل ما حازته من جمال كانت تنقصه نقطة الجمال»[2].

* * *

(١) انظر في سيرة الوزير نظام الملك والسلطان المجاهد ألب أرسلان: ابن كثير البداية والنهاية ٧/ ١٤٩، وفيات الأعيان ٢ /١٢٨، وطبقات الشافعية الكبرى ٤ / ٣٠٩.

(٢) البشير الإبراهيمي، الأعمال الكاملة ٣ / ٢٦٠.

(٧)

الثمرة الشهية

يقول ج. س. بادو: «ما دام هناك ثمرة شهية متدلية من شجرة فإن قطافها يغوي أحد الناس» كانت هذه الثمرة التي أغوت بعض الناس هي الحضارة الإسلامية في القرن السابع الهجري والممتدة من بخارى وسمرقند إلى شواطئ المحيط الأطلسي. هذه الحضارة أغوت قبائل المغول التي تسكن جنوب شرقي سيبيريا على حدود الصين بالتوجه نحو الغرب، وكلما فاحت رائحة دم الفريسة كلما اشتدت الحيوانات المفترسة جرياً نحوها، وهكذا ابتلي العالم الإسلامي بموجات من الزحف المغولي المدمر والتي لم تنقطع طوال هذا القرن.

هذه القبائل المتفرقة في صحراء (جوبي) الباردة، استطاع شاب اسمه (تموجين) أن يجمعها تحت قيادته، وتلقب بـ «جنكيز خان» وكان ذلك عام ٦٠٢هـ، ووجد هذا القائد أن بإمكانه التوسع جنوباً لإخضاع الصين، فرجاله أشداء شجعان، تعودوا على شظف العيش، ولا بد أن يخرجهم من هذه البادية القاسية، وانتصر على الصين، ثم على جيرانه (الخطا) في الغرب، حتى وصل إلى حدود الدولة الإسلامية الكبيرة في المشرق وهي الدولة الخوارزمية وملكها علاء الدين الخوارزمي، الذي استهان واستخف

بقوة المغول ولم يعامل مندوبي جنكيز خان معاملة حسنة، وكان جنكيز خان كان ينتظر هذه اللحظة لتكون ذريعة لاجتياح الأقاليم الإسلامية التي من المؤكد أنه سمع بكثرة خيراتها. اصطدم علاء الدين مع جنكيز خان في معركة قاسية لم ينتصر واحد منهما فيها، ولكن علاء الدين شعر بقوة هؤلاء المغول فانسحب يحاول رص الصفوف وتحصين المدن، ولكن جنكيز خان كان أسرع منه فاحتل مدينة بخارى ثم سمرقند، ثم تتابع سقوط المدن الإسلامية في خراسان وغيرها واحدة وراء الأخرى، وكان هذا الطاغية إذا دخل مدينة قتل أهلها رجالاً ونساء وأطفالاً، ثم يدمرها ويشعل الحرائق فيها، فلم يكن جنكيز خان من الفاتحين الغزاة الذين يفتحون البلدان لتكون تحت حكمهم مثل الإسكندر المقدوني، ولكنه من النوع الذي يزرع الخراب والدمار أينما حل، فهؤلاء المغول يطربون للدماء، ويهشّون للدمار، ويستخفهم أن يقتلوا وأن يسلبوا وأن ينتهكوا الحرمات، لا يعرفون للحرب قانوناً إلا ما تهواه أنفسهم، ولم يؤمّنوا من استأمنهم، فإذا دخلوا مدينة اقتحموا المكتبات فبعثروها ورموها، ودخلوا المساجد يتخذونها مجالس للشراب ومساكن للدواب، وقد أغرقوا مدينة الجرجانية، بعد أن قتلوا أهلها، وهدموا السد المبني على نهر جيحون. لقد كانوا أعظم بلاء حل بالبشرية، والذين نجوا من بطش المغول في المدن الإسلامية لم يعيشوا أصحاء ولا مالكين لقواهم العقلية.

صور المؤرخ ابن الأثير هذا الدمار بقوله: «لقد بقيت عدة سنين مُعرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها كارهاً لذكرها؛ فمن الذي

يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين، فيا ليت أمي لم تلدني، ويا ليتني مت قبل حدوثها وكنت نسياً منسياً»[1] وأقسم ابن الأثير أن من يجيء بعدنا ويرى هذه الحادثة مسطرة في الكتب فقد ينكرها، ويستبعدها لهولها وفظاعتها. هذا ولم يشهد ابن الأثير سقوط بغداد فقد توفي عام ٦٣٠هـ.

بعد هلاك الطاغية جنكيز خان استمرت موجات المغول زاحفة باتجاه العالم الإسلامي، واستطاع حفيده (هولاكو) الوصول إلى بغداد واحتلالها وتدميرها وقتل الخليفة العباسي بمساعدة وتآمر الوزير ابن العلقمي الشيعي، وبقي جيش هولاكو يقتلون ويدمرون أربعين يوماً، ويذكر المؤرخون أن من قُتل في بغداد يزيد على ٨٠٠,٠٠٠ والذين خرجوا من مخابئهم بعد ذلك كانوا أمواتاً بشكل أحياء.

ثم اتجه هولاكو وعساكره نحو بلاد الشام، وكان أول عمل قاموا به هو التحالف مع النصارى في أنطاكية وأرمينيا ضد الأمراء الأيوبيين، وفي سنة ٦٥٨هـ هاجموا حلب وامتلأت الطرقات بالقتلى، ثم أخذوا دمشق، وفي نية هولاكو الزحف نحو مصر ولكنه اضطر للعودة إلى مقر حكم المغول لأمور تتعلق بالأسرة الحاكمة، وبقي نائبه في الشام (كتبغا) وكانت الدولة الأيوبية قد انقرضت في مصر ونشأ حكم المماليك وعلى رأسهم السلطان قطز بن عبد الله الذي تلقى رسالة من هولاكو كلها تهديد ووعيد، وأنه قادم لأخذ مصر. استشار قطز الشيخ العالم العز بن

---

(١) الكامل في التاريخ ١٢/ ٣٥٨.

عبد السلام الدمشقي الذي هاجر إلى مصر مغاضباً لملك دمشق الذي هو من سلالة الأيوبيين لأنه سَلَّم قلعة صفد إلى الصليبيين، فأشار الشيخ بأن لا بد من الجهاد، والنصر للمسلمين بإذن الله، وأراد السلطان قطز أن يأخذ الأموال من الناس للمساعدة على الجهاد ولكن العز بن عبد السلام عارض ذلك بشدة وقال له: تحضر الأمراء ويأتون بما عندهم من الأموال وما عند زوجاتهم من الذهب، وإذا لم يكف جاز الاقتراض من التجار وفرض الضرائب على الرعية. وكأن الناس والأمراء تلكؤوا في المسير للجهاد، ربما بسبب الرعب الذي زرعه المغول في قلوب الناس، فقال لهم قطز: «أنا متوجه؛ فمن اختار الجهاد يصحبني وأنا ألقى التتار بنفسي، فتشجع الأمراء، وسار الجيش باتجاه فلسطين لملاقاة المغول. وفي مكان اسمه (عين جالوت) غربي بيسان في شمال شرقي فلسطين كانت المعركة الحاسمة، وقد رأى السلطان قطز اضطراباً في بعض جوانب الجيش فرمى خوذته على الأرض وصاح (وا إسلاماه) وحمل مع قواده على المغول، ونزل النصر بإذن الله، وقُتِلَ قائد المغول (كتبغا) وكان انتصاراً عظيماً فرح به المسلمون وحمدوا الله عليه، وكان لهذه المعركة آثار كبيرة؛ فلأول مرة يلقى المغول هزيمة كبيرة وينعرض جيشهم للإبادة، وأضحت دولة المماليك في مصر والشام دولة قوية، وهي التي طهرت بلاد الشام من المغول والصليبيين، وأضحت القاهرة مركز إشعاع علمي إذ هرع إليها عدد من العلماء واستقروا بها[1].

(١) انظر في ترجمة السلطان قطز: سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٣ / ٢٠٠، وانظر ترجمة الشيخ العز بن عبد السلام في طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٨ / ٢٠٩.

(٨)

الابتلاء

إن كان الله سبحانه وتعالى قد ابتلى بني إسرائيل بنهر ألا يشربوا منه إلا قليلاً، فقد ابتليت الأمة الإسلامية بأنهار، ولكنها أنهار من دماء سفكها المغول المتوحشون القادمون من الشرق .

كان بلاءً عظيماً حل بالعاصمة بغداد سواء من ناحية السكان أو العمران، وكانت المدن القريبة تتوقع المصير نفسه، أو تدافع عن نفسها حتى الموت، وفي مدينة حران الواقعة في إقليم الجزيرة بين الشام والعراق، كانت أسرة علمية مشهورة قد قررت ترك موطنها والهجرة إلى دمشق بعيداً عن الزحف المغولي . إنها أسرة آل تيمية التي وصلت دمشق عام ٦٦٧هـ، وفي دمشق نشأ الطفل أحمد بن عبد الحليم بن تيمية[1] وتعلم في مدارسها، وأخذ عن علمائها، وكان منذ صغره شغوفاً بالعلم، ولا عجب في ذلك؛ فوالده عبد الحليم من العلماء وكذلك جده عبد السلام، وما أن بلغ ابن تيمية العشرين من عمره حتى أفتى ودرّس في المدرسة التي كان فيها والده، وفي سن الثلاثين أصبح عالماً مشهوراً،

---

(١) ولد في حرّان سنة ٦٦١هـ أي بعد سقوط بغداد بخمس سنوات، وتوفي في دمشق عام ٧٢٨هـ بعد حياة حافلة بالعلم والعمل والجهاد.

ولم يكن من العلماء الذين يحصرون أنفسهم بالتدريس والكتب والتلامذة، ولكنه من النوع الذي يشغله هموم الأمة وواقع الناس وحل مشكلاتهم، كما يشغله محاربة الظلم والبدع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقوم بنفسه بإزالة المنكرات ويساعده أصحاب له، فأحبه العامة ووثقوا به والتجؤوا إليه في المهمات الصعبة، وقد برز كزعيم للأمة في المواجهات مع التتار أحفاد هولاكو وجنكيز خان، فإن غاراتهم توالت على بلاد الشام، ومع أنه قد أسلم بعض ملوكهم الذين يحكمون إيران والعراق مثل السلطان أحمد بن هولاكو والسلطان محمود قازان الذي أسلم عام ٦٩٤هـ ولكنه كان إسلاماً سطحياً، فغاراتهم وعيثهم في الأرض فساداً استمرت، ولم يغيروا من عاداتهم وتقاليدهم وتعظيمهم لجنكيز خان وللدستور الذي وضعه لهم والمسمى بـ «الياسا» وقد قابل ابن تيمية قازان هذا خارج أسوار دمشق، وتكلم معه كلاماً شديداً، وقال له: أبوك وجدك كانا كافرين ولم يفعلوا ما فعلت من إيذاء المسلمين، وقازان يستمع له ويقول: يا شيخ ادع لنا!! ورجع في هذه المرة ولم يدخل دمشق.

وفي سنة (٧٠٢هـ) بدأت أخبار وصول التتار «هكذا تسميهم المصادر الإسلامة، وهم المغول» إلى شمالي بلاد الشام تصل إلى أسماع أهل دمشق، فتهيأ الناس للهرب، وسيطر الذعر والخوف عليهم، وفكروا في الذهاب إلى مصر أو إلى اليمن، ولكن ابن تيمية كان يدور عليهم ويثبتهم، ويطلب منهم البقاء، ويشجعهم ويقول لهم: سننتصر هذه المرة،

ويذهب إلى سور المدينة ويشجع الجنود ويقرأ عليهم آيات الجهاد، ويقول للمسؤول عن القلعة: لو سقطت حجراً حجراً فلا تسلمها، وأجمع قادة المدينة وعامتها على أن يذهب ابن تيمية إلى عاصمة الدولة (القاهرة) للطلب من السلطان محمد بن قلاوون النصرة والدفاع عن بلاد الشام، وفعلاً توجه ابن تيمية إلى مصر وأقنع السلطان بضرورة المواجهة مع التتار، واجتمعت الجيوش المصرية والشامية في جنوبي دمشق، ولكن مشكلة فقهية برزت؛ إذ قال الناس «وبعض الفقهاء»: كيف نحارب هؤلاء التتار وهم مسلمون؟ فقال لهم ابن تيمية: هؤلاء من جنس الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، وقال لهم: إن كل طائفة خرجت عن شريعة من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها، وإن تكلموا بالشهادتين، وقال: لقد شاهدنا عسكرهم (التتار) فرأينا جمهورهم لا يصلي، وهم يقاتلون على ملك جنكيز خان ويقدسون تعاليمه، وإذا رأيتموني والمصحف على رأسي في ذلك الجانب (مع التتار) فاقتلوني، فاطمأن الناس وتشجعوا، ووقعت المعركة في مكان يسمى (شقحب) يبعد عن دمشق جنوباً حوالي ٣٦كم، وخرج ابن تيمية وأصحابه للجهاد، وحضروا المعركة، وطلب السلطان من الشيخ أن يكون معه أثناء القتال (مع الجيش المصري) فقال له: السنة أن يكون المرء تحت راية قومه (أهل الشام) وانتصر المسلمون انتصاراً عظيماً، وتمزق الجيش المغولي، ودخل ابن تيمية ومعه أصحابه دمشق واستقبل استقبال الأبطال، ولكن الشيخ يعلم أن الأمر لم ينته بهزيمة التتار، فهناك الأعداء في الداخل،

الذين كانت لهم صلة بالتتار، وكانوا جواسيس لهم، وهم من الفرق المنشقة عن الإسلام، لا يقيمون صلاة ولا صياماً ولا يخضعون للدولة الإسلامية، فقرر الشيخ مهاجمتهم في دارهم، فأخذ فرقة من الجيش واتجه نحو جبال كسروان (ما يسمى جبل لبنان اليوم) لتأديب هؤلاء الخونة الباطنيين، ولحقه بعد ذلك نائب السلطان في دمشق مع فرقة أخرى، وانتصر الشيخ مرة ثانية، وتاب عدد من هؤلاء، وألزمهم بإقامة الصلاة وبناء المساجد[1].

ولكن هل استراح الشيخ بعد هذا الجهاد؟ ليس من طبيعته ذلك: فالإصلاح الداخلي هو الأهم، إصلاح أمر المسلمين، فقد تفشت فيهم البدع والخرافات والبعد عن السنة، بل البعد عن المنهج الإسلامي الصحيح الذي يؤدي بهم إلى القوة والعزة، لقد وقع المسلمون في الجدل العقيم، والتقليد الأعمى، فتصدى ابن تيمية لكل هذا، وألف رسائل كثيرة لتوضيح المنهج الإسلامي، وللرد على أهل الانحراف، فألف « منهاج السنة » و« درء تعارض العقل والنقل » و« الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » و« الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » .. إلخ.

وهذا الوضوح في المنهج الذي أعاد اكتشافه ابن تيمية في القرن الثامن الهجري ما يزال في العصر الحديث يشكل « الترسانة » الفكرية التي تعتمد عليها الحركات الإسلامية المعاصرة. ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية.

---

(١) انظر: ابن كثير. البداية والنهاية ١٤/٣٧.

(٩)

فتح القسطنطينية

في صباح يوم الثلاثاء ٢٠ من جمادى الأولى ٨٥٧هـ ٢٩ مايو / أيار ١٤٥٣م بدأ السلطان العثماني محمد الفاتح هجومه الأخير لفتح القسطنطينية بعد حصار دام أكثر من خمسين يوماً، وعندما بدأت تباشير الفتح قيل للسلطان: لقد تحقق ما بشر به رسول الله ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية».

لم يَخْفَ على المسلمين في العصور الأولى أهمية هذه المدينة وموقعها الممتاز، وبشارة الرسول ﷺ، فكانت محاولات كثيرة لفتحها، بدأت الاستعدادات لذلك في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان عام ٤٨هـ، وفي عام ٥١هـ جهز أسطولاً عظيماً بقيادة بسر بن أبي أرطأة لحصار القسطنطينية من جهة البحر، وأرسل ابنه يزيد بن معاوية بجيش من جهة البر، واستمر الحصار عدة أشهر، ولم يتمكنوا من الفتح، واستشهد في هذه الغزوة الصحابي الجليل أبو أيوب الأنصاري، ودفن قرب أسوار القسطنطينية، ثم كانت محاولة ثانية في عهد سليمان بن عبد الملك ٩٨هـ حين جهز جيشاً كبيراً بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك، وحاصر المدينة

براً وبحراً لمدة سنة كاملة، ثم تراجع المسلمون دون أن يتم الفتح، وكانت محاولة ثالثة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد عام ١٦٥هـ، ووصل الجيش إلى ضاحية (اسكار) فطلبت ملكة الروم الصلح وتعهدت بدفع الجزية، فوافق الرشيد ورجع دون أن يتم الفتح، ثم توقفت المحاولات، إلى أن قيض الله أن يكون هذا الفتح على يد السلطان محمد بن مراد (الفاتح) وهو السابع من الأسرة العثمانية التي أسست دولة إسلامية شاسعة تمتد من حدود مدينة (ڤيينا) في النمسا وسط أوروبا (حاصر العثمانيون مدينة ڤيينا عاصمة النمسا ولم يدخلوها) حتى اليمن جنوباً، وضمت جميع البلاد العربية ما عدا المغرب الأقصى.

ولد محمد الفاتح في عام ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م وتولى الحكم وعمره (٢٢) سنة، وكان والده السطان مراد قد عهد إلى العالم أحمد بن إسماعيل الكوراني بتربيته وتعليمه، والكوراني فقيه ومحدث ارتحل إلى القاهرة وأخذ الحديث عن ابن حجر. تعلم السلطان محمد القرآن والحديث والفقه، كما تعلم الرياضيات والجغرافيا والتاريخ والعلوم العسكرية، وأتقن عدة لغات غير التركية مثل الفارسية والعربية، ومن العلماء الذين لهم أثر كبير في تربية السلطان الشيخ محمد بن حمزة المشهور بـ «آق شمس الدين» وكان هذا الشيخ عالماً بالطب أيضاً، وله مؤلفات في ذلك، كما أن له بحوثاً في علم النبات، وهذا الشيخ هو الذي كان يُذكّر الفاتح بحديث رسول الله ﷺ عن فتح القسطنطينية، ويرجو أن يكون فاتحها.

عزم السلطان محمد على فتح القسطنطينية، وبدأ ببناء قلعة من الجانب الأوربي على مضيق (البوسفور) للتحكم في هذا الممر المائي، وفي العاصمة (أدرنة) تم صناعة المدافع الضخمة بإشراف مهندس مسلم ومهندس مجري اسمه (أوربان) وتم تركيب مدفع من أضخم المدافع يومئذ، تزن قذيفته (٣٠٠ كغ) ويبلغ مدى مرماه أكثر من ميل، وبدأ حصار المدينة في ٩ أبريل/ نيسان ١٤٥٣م، وكان التركيز على جانب البر، ولكن لا بد من الحصار البحري أيضاً، والقسطنطينية تقع على خليج اسمه الخليج الذهبي، وقد أغلق هذا الخليج بسلسلة طويلة، فلا تستطيع السفن دخوله، فكر السلطان بحيلة لتفادي هذه السلسلة، فأمر بنقل السفن عن طريق البر على أخشاب طليت بالزيت وإنزالها في الخليج من الجهة الأخرى، وفوجئ أهالي القسطنطينية وهم يشاهدون السفن العثمانية قبالة الأسوار.

في صباح ٢٩ مايو بعد صلاة الفجر، دخل السلطان على خيمة الشيخ آق شمس الدين فوجده مستغرقاً في الدعاء؛ فاستبشر خيراً، وكان دوي المدافع قد فتح ثغرة في الأسوار، واندفع الجنود وكان أول الشهداء جندي اسمه ولي الدين سليمان الذي أقام العلم العثماني على أسوار المدينة، ودخل السلطان محمد منتصراً، وذكَّره الشيخ شمس الدين بشريعة الإسلام في القتال والفتوح، وفي يوم الجمعة أقيمت الصلاة في (أيا صوفيا) بعد أن حولها السلطان إلى جامع، وأعطى الأمان لأهل المدينة، وبدأ بتعميرها ونقل المسلمين إليها.

كان السلطان محمد من الملوك الذين يهتمون بالعلم، فأنشأ المدارس الكبيرة وأدخل في مناهجها دراسة العلوم الطبيعية بجانب العلوم الدينية، كما عُرف بحبه للعلماء واستقدامهم من البلاد البعيدة، وكان يشاور العلماء ويحترمهم، قال بعد الفتح: «إنكم تروننني فرحاً، فرحي ليس فقط لفتح هذه القلعة (القسطنطينية) إن فرحي يتمثل في وجود شيخ عزيز الجانب في عهدي، وهو مؤدبي الشيخ محمد شمس الدين».

* * *

(١٠)

صقور القوقاز

« يا شامل! جياد غريبة تشرب من ينابيعنا، وأناس غرباء يطفئون قناديلنا؛ فهل تمتطي صهوة جوادك، أو نساعدك على ذلك؟ ».

(شاعر من داغستان)

على الضفة الغربية من بحر الخزر (قزوين) تقع داغستان بجبالها الشاهقة، وأنهارها السريعة، ولغاتها المختلفة، وأعراقها الكثيرة على صغر مساحتها وقلة سكانها.

دخل الإسلام مبكراً إلى هذه البلاد، فقد تم فتح أرمينية وأذربيجان في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة ٢٠هـ. ومن القواد الفاتحين: سراقة بن عمرو، وسلمان بن ربيعة الباهلي، وكانوا يسمون داغستان (باب الأبواب) وكأنها مركز ومدخل لفتح بقية بلدان القفقاس، وفي عام ١٠٥هـ تم الفتح الإسلامي على يد مسلمة بن عبد الملك.

انتشر الإسلام بين شعوب هذه المنطقة، وتعايشت مع الدول الإسلامية المتعاقبة، وفي القرن السادس عشر طمع الروس في الاستيلاء على داغستان فلم يفلحوا ووجدوا مقاومة شديدة، وفي عام ١٧٢٢م أعادوا الكرة، وساق بطرس الأكبر جيشاً استولى فيه على سائر السواحل الغربية لبحر الخزر، ولكن نادر شاه ملك إيران استرجع هذه المناطق من الروس، وفي عام ١٨١٣م رجع الروس للمرة الثالثة واستطاعوا السيطرة على داغستان وما جاورها.

تخلى المسلمون (الدولة العثمانية وغيرها من الدول القائمة يومئذ) عن مساعدة داغستان واستسلم أمراء البلاد للحكومة الروسية، عندئذ ثار الشعب على الروس وعلى الأمراء، وتولى قيادة المقاومة العلماء وتلامذتهم، وكأنهم سبقوا سائر المسلمين في معرفة أن ضررهم هو من حكامهم الذين يبيعون حقوق الأمة بلقب أو لذة فارغة، قام العلماء بالإصلاح الداخلي أولاً، وهو أن تكون المعاملات وفقاً للشريعة، وتزعم تلك الحركة القاضي محمد الذي لقب بعدئذ بـ «الغازي». استطاع غازي محمد السيطرة على قبائل (الآفاريين) وامتدت دولته إلى الشيشان، وانتصر على الروس في عدة مواقع، وكان من مساعديه المقربين الشيخ شامل الذي اشتهر بصرامته وإخلاصه.

في قرية (غمرى) حوصر غازي محمد ورجاله، وبعد استشهاد عدد من المجاهدين قال لشامل: سيقتلوننا جميعاً دون أن نسبب خسارة للكفار، الأفضل أن نخرج ونقاتل، وعندما اندفع خارجاً سقط برصاص

العدو، ورأى شامل جنديين واقفين في مواجهة الباب، وبلمحة بصر قفز خارجاً من الباب فاستدار الجنديان، ولكن شامل قطعهما بالسيف، وشق شامل طريقه بين حراب الأعداء، بعد أن جُرح خمسة عشر جرحاً، والتجأ إلى الجبال. بعد استشهاد غازي محمد التف الداغستانيون حول نائبه حمزة بك الذي استشهد بعد ذلك بسنتين في مدينة (خونزاخ) فتولى القيادة الشيخ شامل.

ولد شامل في قرية (غمرى) عام ١٧٩٧م، يقول متحدثاً عن حاله: «وأنا ذاتي، من أكون؟ ابن بستاني من قرية غمرى البعيدة، كنت في صغري في غاية الضعف الجسماني، وبعد احتلال الأعداء لبلدي نسيت كل شيء وأصبح قتالهم أكبر همي..».

قاتل الشيخ شامل الروس لمدة خمس وعشرين سنة ١٨٣٤ – ١٨٥٩م ومعه آلاف المجاهدين من داغستان والشيشان، وفي حصار (آخولغو) خسر الروس ثلاثة آلاف قتيل، وفي عام ١٨٣٩م اندلعت الثورة في الشيشان وأعلنت قراها القريبة من داغستان خضوعها للشيخ شامل. حاول الجنرال (غالفييف) معاقبة الشيشانيين ولكنه تعرض لهزيمة منكرة. وفي عام ١٨٤٣م افتتح شامل جميع الحصون التي كانت مع الروس، وغنم منهم (٣٥ مدفعاً)، وأعتاداً حربية، ومؤناً كثيرة، وأخذ عدداً من الأسرى. وفي مدينة (فيدنو) عمل شامل على تطوير الصناعة الحربية، وخاصة صناعة المدافع، كما أنشأ مصنعاً للذخيرة في (غونيب). وفي هذه المعارك الطاحنة مع الروس أُسر ولده عبد الرحمن، ولكن الشيخ

استطاع أسر أميرات من جورجيا ليبادل الروس بابنه عبد الرحمن، وفي الأعوام التالية: ١٨٥٤، ١٨٥٦، وضعت روسيا كل إمكاناتها الحربية في قتال الشيخ شامل، ونظم الشعراء الروس القصائد في وصف تلك الحروب، وما زالت روسيا توالي الزحوف وتستولي على الحصون حتى اضطر الشيخ للالتجاء إلى الجبال وفتح معارك صغيرة مع الروس، وفي قرية (غونيب) الجبلية المرتفعة تحصن الشيخ بعدد محدود من المجاهدين، وجاء الأمير (باریاتینسکي) لداغستان وكلف العقيد (لازاريف) بإجراء الصلح مع شامل، ودعوته للاستسلام، ولم يكن الشيخ ينتظر أي مساعدة من العالم الإسلامي. كان واقعياً طوال حياته. وكانت خطة الروس حرق الغابات وأوامر القيصر تقول: «خَرِّب عشش الصقور، وانتف أجنحة الصقور حتى لا تستطيع الطيران».

قاتل الشيخ حتى آخر لحظة، ولم يبق في القلعة سوى ثلاثمائة شخص، وقاتلت النساء. تردد الشيخ شامل في الاستسلام وقبول الشروط، ولكن العقيد (لازاريف) استطاع الوصول إلى مقر الشيخ وحياه قائلاً: «شامل! العالم كله يعرف مآثرك، والمجد الذي أحاط بشخصك، وعليك أن تخرج لمقابلة القائد الأعلى، وخرج البطل من قريته محاطاً بثلة من المجاهدين، ترجل الإمام شامل عن ظهر جواده، كان يلبس إزاراً أخضر، وعلى رأسه عمامة بيضاء، ووقف أمام (باریاتینسکي) ووضع يده اليمنى على مقبض سيفه، وألقى نظرة على جبال داغستان وقال: أيها السردار (النائب) لقد حاربت خمساً وعشرين سنة أدافع عن

وطني، جروحي تؤلمني، ولن تلتئم أبداً» كان ذلك في شهر أغسطس عام ١٨٥٩م وفي عام ١٨٧٠م تلقى شامل الإذن بالرحيل إلى مكة، فتوجه إليها مع أفراد أسرته، وبعد أحد عشر شهراً من وصوله توفي في المدينة النبوية.

كيف استطاع هؤلاء وأمثالهم في العالم الإسلامي الانتصار على دول كبرى بعددها وعدتها، وإن هزموا بعدئذ بسبب التفوق التقني الغربي؛ فليس هناك إلا جواب واحد: إنها أمة سليمة الإيمان، نقية الجوهر لم يتم بعد تغريبها ولا تدجينها، كانت القيادة للنخبة التي أعطاها المجتمع مقاليده.. رحم الله الشيخ شامل وبارك في جهاده.

* * *

(١١)

الملك الصالح

محيي الدين أورنك زيب (عالمكير)

لم ينقطع الحكم الإسلامي في الهند منذ أن دخلها الفاتح الكبير محمود الغزنوي في أوائل القرن الخامس الهجري إلى أن سقطت بأيدي الإنكليز في القرن الثالث عشر الهجري ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٨م، لقد تسلل الإنكليز عن طريق شركة الهند الشرقية، وعزلوا آخر حاكم مسلم (بهادرشاه) لاتهامه بمساندة الثورة التي قامت ضدهم عام ١٨٥٧م. وبعد الغزنويين تتابع على الحكم في الهند أسر كبيرة وقواد كبار من أصول أفغانية، مثل: الغوريين، وآل تغلق، وكانت الأسرة المغولية هي آخر من حكم الهند، وليس غريباً أن تتحول قبائل المغول أو التركمان إلى الإسلام ويكون منهم أسر تحكم المسلمين فالإسلام كان متفوقاً في حضارته ونظمه ولغته، فاندمج هؤلاء الغزاة في المجتمع الإسلامي وتحولوا إلى الإسلام.

مؤسس هذه الأسرة: بابر ظهير الدين محمد بن شيخ عمر (٨٨٨ - ٩٣٧هـ) من أحفاد تيمور لنك، فهو تركي من جهة الأب، ومغولي من

جهة الأم، وجده لأمه هو الذي سماه (بابر) . كان أبوه أمير مدينة فرغانة التي تقع شمال شرقي بخارى، ولم يستطع الابن الاحتفاظ بهذه المدينة بعد وفاة والده حين أزاحه (الأوزبك) عنها، فخرج طريداً مع بقايا من عسكره وكان فيه حزم وعزم، فما أن صادف بعض المعارضين للأوزبك حتى ضمهم إليه ودخل مدينة (كابل) وأصبح هو أميرها . وفي هذه الفترة كان الحكام في الهند منقسمين على أنفسهم متفرقين فاستنجد به بعض الحكام فوجدها فرصته لتوسيع إمارته وحكمه . ودخل الهند فاتحاً وانتصر على الإمارات الصغيرة ووحدها في دولة قوية .

جاء بعد بابر ابنه همايون ثم حفيده (أكبر) الذي تولى الحكم عام ٩٦٣هـ وفي عهده وقعت الفتنة الكبرى التي أظلمت لها شمس الإسلام في الهند؛ فقد زين لهذا الملك عقله، ووسوس له شيطانه أن يخترع ديناً جديداً يوحد بين الأديان كلها ويجمع بينها، وراح يباحث ويسأل أهل كل ملة عن عقائدهم، وأسس داراً لهذا الغرض (عبادت خانه) وكان يجلس معهم ويناقشهم ويسألهم، هذا وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، واستقدم رجال الدين الهندوس والنصارى ليسمع منهم، ومما شجعه على ضلالته وزاده غروراً أن اجتمع حوله بعض الفلاسفة وعلماء الشيعة وغلاة الصوفية، وقد مَهّد لهذا الدين الجديد بأن أمر الناس بالسجود له إذا دخلوا عليه، وأمر بعدم ذبح البقر احتراماً للديانة الهندية، وشارك الهنادكة في أعيادهم، ومارس عبادة الشمس مع زوجاته الهندوسيات، ومنع أحداً أن يسمى باسم (محمد) ﷺ، ومنع اللغة العربية، وحظر على الناس

الذهاب للحج، ثم أصدر مرسوماً يقضي بأنه معصوم وأنه مجتهد!! وإذا رأى رأياً فعلى المسلمين كلهم طاعته وبعد ثلاث سنوات من هذا المرسوم أعلن الدين الجديد عام ٩٩٠هـ. ولكن هذه البدعة (الأكبرية) جوبهت بالرفض الضمني من الناس ولم تتجاوز غرف القصر الملكي وأفراداً من الحاشية، ومع ذلك فإن آثارها في المجتمع كانت قوية، فقد رفع أهل الكفر رؤوسهم وانتشرت البدع، وانتشر الفساد الأخلاقي والتعامل بالربا، واحتفل بأعياد المجوس والنصارى، وضعف العلم وقلّ العلماء.

هلك هذا الطاغية عام ١٠١٣هـ وخلفه ابنه سليم الملقب بـ« جهان كير» ولم يتغير الموقف إلا قليلاً في آخر حياته حين منع الخمر والقمار، وفي وسط هذه الظلمات، والمسلمون في ضيق عظيم، وقد حظر عليهم القيام بشعائر دينهم، ظهر المصلح الكبير السيد أحمد السرهندي[1] الذي جاهر بالحق ودعا إلى السنة، واستجاب له خلق كثير، ووفد إليه الناس من كل مكان، وألف في الرد على أهل البدع وخاصة الرافضة، استدعاه الملك (جهان كير) بن أكبر فدخل عليه ولم يسجد له كما يفعل الناس فغضب وزج به في السجن، ثم أفرج عنه واعتذر إليه، فبدأ الشيخ بإرسال الرسائل إلى الأمراء يدعوهم فيها للرجوع إلى السنة، ويرشدهم إلى طريق الحق. يقول في رسالة له: «أما بقاء شيء من شعائر الكفر على حالها في هذا العصر، فذلك مما يشق على كل مسلم، وعلى المسلمين بذل كل الجهد

---

(١) ولد في سرهند ٩٧١هـ في شمالي غرب الهند وتوفي عام ١٠٣٤هـ، من مؤلفاته: المبدأ والمعاد، إثبات النبوة، رد الشيعة.

في القضاء عليها» وانتقد أعمال علماء السوء وكشف عن ضرره على الدين، وهاجم البدع والمتصوفة الذين يقولون بـ«وحدة الوجود» وفي عهد هذا المصلح ظهر أيضاً الشيخ عبد الحق الدهلوي الذي نشر كتب السنة ودرّس كتب الحديث، وكان الناس قد تعودوا على قراءة الفلسفة والتصوف، وكان ابن «جهان كير» الملقب بـ«شاه جهان» قد عاهد الشيخ السرهندي على اجتناب المعاصي وإبعاد المفاسد التي أحدثها جده «أكبر» وقد وفى بكثير من هذه الوعود، ولكن لم تذهب كل المفاسد والبدع في عهده، وإنما الذي آتت ثمرة هذا الإصلاح أكلها في عهده هو الملك الصالح محيي الدين أورنك زيب (١٠٦٨ - ١١١٨هـ) (١٦٥٧ - ١٧٠٧م) الملقب بـ«عالم كير» وهو ابن شاه جهان، فهذا الذي أعاد للدين نضارته وشبابه، وألغى القوانين المناقضة للشريعة، وأكرم العلماء، وقضى على البدع والمنكرات، وأنشأ مصلحة للاحتساب، وعين لها موظفين يقومون على تنفيذ أوامره، وألغى كثيراً من الضرائب الظالمة، وأمر بتعمير المساجد، وترميم القديم منها، وألغى حفلات الموسيقى والغناء في القصر، واهتم بنشر الإسلام. وقد فتح إقليم (الدكن) في وسط وجنوب الهند الذي لم يخضع من قبل لحاكم مسلم، وشمل حكمه شبه القارة الهندية بأكملها من كابل إلى أراكان ومن جبال الهملايا إلى أقصى جنوب الهند.

ومن أعماله العظيمة أنه أمر بتأليف موسوعة فقهية تحمل أقوال أئمة المذهب الحنفي وهي المعروفة بالفتاوى الهندية أو (العالمكيرية) وكان

يصوم ويتقشف، ويدرّس القرآن بنفسه للذين أسلموا من الهندوس. وعندما حانت وفاته أوصى بأن يدفن في أقرب مقابر للمسلمين، ولا يزيدوا في ثمن كفنه على خمس روبيات كان قد كسبها من صنع الطواقي وبيعها، وتوفي في ٢٨ ذي القعدة عام ١١١٨هـ وهو في التسعين من عمره، وقد حكم خمسين سنة، رحمه الله وجزاه عن المسلمين خيراً.

* * *

(١٢)

الإصلاح الإسلامي في الهند

بعد وفاة الملك الصالح (أورنك زيب) تردت الحالة السياسية للمسلمين في شبه القارة الهندية فالملوك الذين خلفوه كانوا ضعافاً ولم يقم واحد منهم بتجديد قوة الدولة، وخلال نصف قرن حكم الهند أحد عشر ملكاً، كانت الأمور تسير من سيئ إلى أسوأ؛ فالإنكليز يتدخلون بخطوات ماكرة، وعصابات الهندوس (المراهته) تغير على المدن الإسلامية فتشيع الخراب والدمار.

في هذا الظلام الدامس، قيض الله للمسلمين عالماً جليلاً أعاد للإسلام بهاءه ورونقه، ونفخ في المسلمين روحاً قوية آتت ثمارها جيلا بعد جيل، إنه الشيخ أحمد بن عبد الرحيم الدهلوي الملقب بـ « ولي الله الدهلوي » (١١١٤ - ١١٧٦هـ) (١٧٠٣ - ١٧٦٢م)، وهو من عائلة مشهورة بالعلم والفروسية؛ فوالده عبد الرحيم كان عضواً في لجنة العلماء التي عُهد إليها بترتيب الفتاوى الهندية المشهورة بـ « العالمكيرية » وبإشراف الملك أورنك زيب، وجدّه وجيه الدين كان من الصلحاء والشجعان المشهورين.

تربى ولي الله الدهولي ونشأ نشأة علمية إسلامية، وفي الثلاثين من عمره رحل للحج وأقام في الحجاز لمدة سنة، دَرَس خلالها علم الحديث على يد الشيخ محمد بن إبراهيم الكردي المدني، وعن طريق هذا الشيخ تعرف الدهولي على آراء شيخ الإسلام ابن تيمية، وسيكون لهذه الصلة بتراث ابن تيمية أثر كبير في دعوته بعد رجوعه للوطن، وفي مدينة دلهي قام ببث دعوته وعلمه، وأدار الإصلاح الذي يريده على الجوانب الآتية:

١ – تصحيح العقائد وإزالة الشرك والخرافات والبدع، وبيان أن سعادة الإنسان هي في معرفة الله بصفاته وأفعاله والقيام بالعبودية الخالصة لله.

٢ – تجديد الصلة بالقرآن وإرجاع الناس إلى المصدر الأول للنهضة والإحياء، والمصدر الأول لفهم الدين وهداية الناس إلى المدنية الصحيحة، وهذا الرجوع للقرآن ليس للمتعلمين فقط، بل لعامة المسلمين، ولأهمية هذا الموضوع قام الشيخ بترجمة معاني القرآن إلى الفارسية (لغة العلم يومها) ثم قام ابنه عبد القادر بترجمة المعاني إلى الأوردية، وحتى يقرب القرآن إلى طلاب العلم ألف رسالة قيمة في أصول التفسير سماها: «الفوز الكبير».

٣ – كانت مدارس العلم وطرق المشايخ تركز على المختصرات والحواشي، وعلم الكلام وفلسفة اليونان، وابتعدوا عن السنة وحديث رسول الله ﷺ، فقرر الشيخ تدريس البخاري ومسلم وبقية الكتب الستة،

وأثمرت هذه الجهود وبارك الله فيها، فشاع الاهتمام بالحديث في أنحاء الهند، يقول الشيخ رشيد رضا: «ولولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر، لقضي عليها بالزوال في أمصار الشرق» ومن جهود الشيخ في هذا المجال شرحه للموطأ بالفارسية والعربية، ثم اتجهت جهود الشيخ للتوفيق بين الفقه والحديث، وأبدى رأياً معتدلاً منصفاً في المذاهب الأربعة، وتكلم عن الاجتهاد والتقليد، مما يدل على طبيعته المتزنة وذوقه الصحيح وواقعيته.

٤ – الاهتمام بالتاريخ الإسلامي، والنظر فيه من ناحية التوافق بين الإسلام وبين حياة المسلمين، وفرّق الشيخ بين تاريخ الإسلام وتاريخ المسلمين، وألف كتابه الشهير: «إزالة الخفاء عن تاريخ الخلفاء» وبرهن فيه أن إثبات خلافة الخلفاء الراشدين من أصول الدين، وأن التطبيق العملي لتعاليم الإسلام ظهر على أتم صورة في عهد الراشدين. ومن خلال تأملاته في التاريخ الإسلامي رأى أن أسباب تأخر المسلمين يرجع إلى:

أ – الاستبداد السياسي.

ب – إغلاق باب الاجتهاد والتحقيق.

ولكن أعظم عمل قام به هذا المجدد هو في تأليف كتاب «حجة الله البالغة» الذي تكلم فيه عن أسرار الشريعة الإسلامية في صورة متسقة، مدعمة بالحجج والدلائل، وقد تكلم عن: الإيمان والعبادات والمعاملات والأخلاق والمدنية والسياسة، مع توضيح الفرق بين الأصول والفروع، وبين

المقاصد والوسائل.

٥ – لم يكن الشيخ الدهلوي من أولئك العلماء الذين ينشغلون بالتأليف والتدريس ولا يهتمون بأمور المسلمين، بل كان على علم بتفاصيل ما يجري في الحياة السياسية للمسلمين في الهند، وأسباب تدهور الدولة، وكان يعمل بجد ونشاط لاستعادة السلطة الإسلامية، ورأى بثاقب نظره أن الهند بحاجة إلى قوة إسلامية تأتيها من الخارج، قوة دافقة الحيوية تجدد للمسلمين من عزيمتهم وثقتهم بأنفسهم أمام عصابات (المرهتة) وعصابات (الزط). ووجد الشيخ بغيته في والي مدينة قندهار الأفغانية أحمد شاه الأبدالي (١١٣٦ – ١١٨٦هـ) (١٧٢٣ – ١٧٧٢م)، وهو شخصية قيادية سياسية فيه حمية ودين، وفيه فروسية وأخلاق.

قام الشيخ بمراسلة هذا القائد وطلب منه الإسراع في المجيء للهند وكتب له: «نسأل الله تعالى أن يكتب لكم في صحيفتكم ثواباً عظيماً، ويسجل اسمكم في صفحة المجاهدين في سبيل الله، وإن هزيمة المرهتة هينة سهلة شريطة أن يشمر غزاة الإسلام عن ساق الجد والاجتهاد، كل مهارة (المرهتة) في جمع العدد الكبير، أما البطولة والشجاعة فليست فيهم»[1].

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإمام الدهلوي ٢٤٦، وما قام به الشيخ الدهلوي من مراسلة الأبدالي يشبه ما فعله شيخ الإسلام ابن تيمية حين طلب من السلطان في مصر الإسراع إلى الشام للمساعدة في صد الغزو التتري.

وفي عام ١١٧٤هـ الموافق ١٤/ ١٢/ ١٧٦١م وقعت المعركة الحاسمة على أرض (باني بت) وتمزق (المرهتة) وهزموا شر هزيمة، وكانت معركة غيرت مجرى تاريخ الهند؛ حيث أخرجت (المرهتة) من الخارطة السياسية، ووقع ما توقع الشيخ من هزيمتهم، ورجع أحمد شاه الأبدالي إلى وطنه الأفغان بعد أن مكث في دلهي أياماً.

كانت أعمال الشيخ الدهلوي منصبة على التأسيس والتأصيل وإزاحة العقبات، وصقل الأذهان، كان تجديداً علمياً أما التجديد العملي ومقاومة الطغيان والفساد، ومحاولة تأسيس دولة إسلامية فسيكون من نصيب أحفاده وتلامذة مدرسته (حركة أحمد بن عرفان الشهيد) وكما يقال: إن الفكرة ليست ذلك الماء الهادر بين الصخور، بل ذلك الماء غير المرئي الذي يرطب التربة ويغذي الجذور.

* * *

(١٣)

حركة أحمد بن عرفان الشهيد

(١٢٠١ - ١٢٤٦هـ)

(١٧٨٦ - ١٨٣١م)

كانت الثمار العملية لجهود الإمام ولي الله الدهلوي[1] العلمية والتربوية على يد أبنائه وأحفاده وتلامذته، فقاموا بنشر السنة وإحياء تعاليم الإسلام في كل أرجاء الهند، كان للإمام الدهلوي أربعة أنجال، كلهم طلبوا العلم وهم: عبد العزيز، رفيع الدين، عبد القادر، عبد الغني، إلا أن أكبرهم عبد العزيز كان أكثرهم علماً وتدريساً وتأليفاً، وقد انتفع به خلق كثير، وظهر في الهند علماء متضلعون في علوم الشريعة. كانت نهضة علمية لم يسبق للهند أن عرفتها على مدى أزمان متطاولة، واقتفى الشيخ عبد العزيز أثر والده في الاهتمام بالقرآن والحديث ومحاربة البدع والشرك، والاهتمام بأمر المسلمين خاصة وقد وقعت الهند تحت الاحتلال الإنكليزي. ويكفي أن نعلم أن مشاهير علماء الحديث كالشيخ المبارك فوري شارح سنن الترمذي، والمحدث نذير حسين هم من مدرسة

---

(١) التي ذكرناها في الصفحات السابقة.

الشيخ عبد العزيز، كما أن من مآثره الجليلة تأليفه لكتاب (التحفة الاثنا عشرية) الذي قاوم فيه فتنة التشيع، وفتنة الفوضى العقلية والفكرية المنتشرة في المجتمع الإسلامي في الهند.

وفي عهد الشيخ عبد العزيز استطاعت شركة الهند الشرقية الإنكليزية أن تتسلم حكم أجزاء كبيرة من الهند، وقد قاوم هذا التدخل أمراء اشتهروا بالحمية والشجاعة، ولكن قوة الإنكليز تغلبت في النهاية. كان الشيخ يرى هذه الأوضاع، ويرى هذا التغير، وأصدر فتواه الشهيرة بأن الهند أصبحت (دار حرب) يقول: «إن حكم إمام المسلمين في هذه المدينة (دلهي) غير نافذ، والكفار أصحاب حكم وسلطة في شؤون إدارة البلاد وتنظيم الرعية، والفصل في الخصومات، وإن كانوا لا يتعرضون لبعض الأحكام الإسلامية كإقامة الجمعة والعيدين..»[1].

كان من نتائج هذه المدرسة، وهذا الانتشار الواسع للعلم الشرعي، وهذه النظرة الصائبة لحكم الإنكليز، كان من نتائج هذا أن ظهرت الحركة التربوية الجهادية التي استطاعت لفترة من الزمن أن تطبق شرع الله في الجزء الشمالي الغربي من الهند، وأن تبدأ الجهاد لتحرير الهند من الإنكليز ومن عصابات (السيخ) وقاد هذه الحركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد والشيخ إسماعيل بن عبد الغني حفيد ولي الله الدهلوي، وهي حركة كبرى جديرة بأن تسجل كأكبر المحاولات التجديدية في القرن الثالث عشر الهجري. يقول العلامة صدّيق حسن خان ١٣٠٧هـ: «كان السيد

---

(١) أبو الحسن الندوي: الإمام الدهلوي ٢٨٧.

أحمد الشهيد آية من آيات الله في هداية الخلق، وقد طهرت مواعظ خلفائه وخطبهم أرض الهند من الشرك والبدع..».

ولد الشيخ أحمد بن عرفان في بلدة (رائي بريلي) التابعة لمدينة (لكنو) وهو ينتسب من جهة جده لأمه إلى أسرة عريقة في العلم والإمارة، وفي صغره لم يرغب في طريقة التعلم التقليدية كما أراد له والده، وكان ولوعاً منذ صباه بالألعاب والفروسية، وبدا عليه مبكرا الاهتمام بشؤون الناس والانهماك في الذكر والعبادة، غادر بلدته إلى (لكنو) للعمل، ودخل في سلك الجندية، ثم ترك ذلك وهاجر إلى دلهي لسماع دروس الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وهنا أخذ حظاً وافراً من العلم والمعرفة، وفاق أقرانه، ثم غلب عليه حب الجهاد، فذهب إلى معسكر الأمير المجاهد نواب مير خان، وخاض معه حروباً دامية، ولكن وجده يقنع بالمغانم فتركه وعاد إلى دلهي، وقام بنشر السنة والطريقة السلفية، والتف الناس حوله، وقام معه الشيخ إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي (١١٩٣ - ١٢٤٦ هـ) وهو الذي ألف كتاب (الإيضاح) شرح فيه السنة والبدعة، وهو مؤلف كتاب (الصراط المستقيم)، وقام هذان الشيخان بجولات في المدن والقرى للدعوة وبيان السنة وكان أثرها كبيراً، وفي سنة ١٢٤١هـ عزم الشيخ أحمد بن عرفان على الهجرة والجهاد، خاصة عندما سمع بأخبار ما يفعله (السيخ) بالمسلمين في مقاطعة البنجاب، وأعلن للناس أنه عازم على ذلك، وشاع حديث الجهاد وحدا بالناس حادي الشوق، وتسابق الآباء والأبناء، وكانت خطة الشيخ أن يهاجر من منطقة نفوذ

الإنكليز، ويستعين بالقبائل الأفغانية وأهل البنجاب التي يتمتع أهلها بالأنفة والفروسية، ومن هناك يزحف على الهند التي أصبحت مطية للإنكليز.

اتجه موكب الجهاد غرباً باتجاه السند، ثم بلوشستان فأفغانستان وقد لاقوا في الطريق أهوالاً ومشاق تغلبوا عليها بإيمانهم وصبرهم. وفي «قندهار» و«كابل» استُقبل الشيخ أحمد بحفاوة بالغة، وتكلم مع أمراء الأفغان وقصده توحيد الصف الإسلامي لمقاومة الإنكليز ثم توجه الشيخ إلى بشاور ثم إلى «نوشهرة» حيث استقر هناك وأسس أول معسكر للمجاهدين عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م ومن هذا المعسكر أرسل الرسائل لزعماء القبائل يدعوهم فيها إلى الالتزام بأحكام الشرع والمساعدة على إقامة فريضة الجهاد، وأرسل إلى حاكم بنجاب السيخي (رنجيت سنغ) يدعوه للإسلام، ولكنه قابل هذه الدعوة بسخرية وظن أنه شيخ له أطماع دنيوية.

استجاب للشيخ أحمد كثير من الناس والأمراء، وجاءه المتطوعون من الهند وفيهم أكابر العلماء، وفي يوم الخميس ١٢ جمادى الآخرة ١٢٤٢هـ اجتمع العلماء والأمراء ورؤساء القبائل وبايعوا الشيخ أحمد بن عرفان على السمع والطاعة في المعروف واختاروه أميراً لهم، وذاق الناس حلاوة الحكم الإسلامي، فانتشر الأمن وعم الرخاء وساد الإخاء، فقد نُصب في كل قرية قاضٍ ومفتٍ وصاحب حسبة، وجباة يجمعون الزكاة، وأزيلت المنكرات والعادات الجاهلية، وأرسل الأمير السرايا والجيوش للأماكن

القريبة، وانتصر على السيخ في معركة (أكورة) بالقرب من بشاور، وبث الدعاة للوعظ والإرشاد والدعوة للجهاد.

حاول حاكم بنجاب ملاينة الشيخ أحمد فأرسل الهدايا وأطمعه بإمارة مستقلة، ولكن هيهات والشيخ إنما يريد إعلاء كلمة الله.

كانت العقبة الكبرى التي واجهها الشيخ هي أمراء بشاور الذين لا يهمهم إلا بقاؤهم في الحكم وبقاء صلتهم الودية مع ملك البنجاب، ومع أن معسكر الجهاد انتصر عليهم وفُتحت بشاور، واستبشر الناس خيراً بإقامة شرع الله، إلا أن زعماء القبائل لا يروق لهم التنازل عن عاداتهم الجاهلية وإقامة العدالة الإسلامية، وحكام بشاور من أمراء الأفغان يريدون استمرار ظلمهم وعدوانهم، فدبروا مؤامرة لقتل القضاة والعلماء والدعاة الذين كلفوا بمهماتهم من قبل الشيخ أحمد بن عرفان، كما استطاع الإنكليز التلاعب بعقول بعض المشايخ الذين كتبوا بمحاربة السيد أحمد بن عرفان لأنه (وهابي) بزعمهم، وكان جرحاً عميقاً قطع كل أمل في هذه المنطقة، وقرر أمير الجهاد ترك هذه البلاد واتجه بجيشه وإخوانه إلى كشمير، ولم ينسَ الشيخ في طريقه تذكير وتعليم أهل القرى التي مَرَّ بها، وفي قرية جبلية اسمها (بلاكوت) كانت معركة فاصلة مع السيخ، مع دولة لاهور التي آذت المسلمين كثيراً، في هذه القرية وزع الشيخ فرق الجهاد واستعد للمعركة، ودعا دعاء طويلاً، وطلب من الناس التوبة والاستغفار، ثم لبس ملابس الحرب وفي صباح يوم ٢٤ ذي القعدة ١٢٤٦هـ صلى السيد بالناس، ثم نزل إلى الميدان ومعه إخوانه يحيطون به والقنابل تنهمر عليهم،

استشهد عدد كبير منهم واستشهد السيد أحمد بن عرفان واستشهد الشيخ إسماعيل الدهلوي.

في (بلاكوت) انطوت صفحة عظيمة من الجهد والجهاد والدعوة إلى الله والسنة وتطبيق الإسلام، كانت محاولة صادقة جادة لم تكتمل. رحم الله تلك النفوس الكبيرة التي دفنت في (بلاكوت) . لقد مات الشهيدان السعيدان ولكن الأثر الذي خلفه الإمامان لم يمت، حيث كانت دعوة لإحياء الدين والعودة إلى عزة الإيمان .

* * *

(١٤)

الجامع الأزهر

من ميزات الحضارة الإسلامية أنه إذا وقع تدهور سياسي لبعض الدول، فلا يعني هذا أن يصاحبه تدهور علمي أو اجتماعي؛ لأن الإسلام طلب أموراً كثيرة يمكن للفرد أن يقوم بها؛ فالزكاة وهي ركن مالي واجتماعي يمكن للمسلم أن يقوم به ويوظفه كما يريد الإسلام، ويرى العلماء أن من واجبهم تعليم الناس وتبليغ الدين، فتزدهر المدارس، ويكثر طلبة العلم، وكثيراً ما كانت دور العلم في المدن الإسلامية غير تابعة للدولة.

من أبرز المعاهد الدينية والحصون العلمية في تاريخنا الحضاري الجامع الأزهر في القاهرة الذي أسس عام ٣٦١هـ، ومثله جامع الزيتونة في تونس وجامع القرويين في مدينة فاس في المغرب.

في أواخر القرن الثامن عشر كانت أوضاع مصر متردية من الناحية السياسية، فحكامها من (المماليك) يحاولون الانفصال عن الدولة العثمانية، وهم فئة أتقنت فن القتال ولكنها أتقنت أيضاً الظلم وأكل أموال الناس، وكان لعلماء الأزهر صولة وقوة فكانوا يردعونهم عن الظلم

ويبطلون كثيراً من قراراتهم المخالفة للشرع.

ومن أشهر الحوادث حادثة الشيخ الشرقاوي عندما جاءه الفلاحون يشكون إليه ظلم الجنود الذين يطلبون منهم ما لا قدرة لهم عليه، فقام الشيخ وأقفل الأزهر وأمر الناس بإغلاق الأسواق وتعاون في ذلك مع الشيخ السادات، وأذعن الحكام والتزموا بما شرطه عليهم العلماء ووقعوا وثيقة على ذلك.

وأما الدولة العثمانية فكانت مشغولة بحروبها مع الروس، وفرنسا وبريطانيا تتنافسان للسيطرة على البحار والمواقع المهمة في العالم. ومن هنا جاءت فكرة القائد الفرنسي (نابليون بونابرت) لغزو مصر حتى يقطع الطريق على بريطانيا في السيطرة على البحر المتوسط، وربما يحلم بأن يكون كالإسكندر الأكبر ويفتح الشرق.

استطاع نابليون دخول مصر (١٢١٣هـ - ١٧٩٨م) بعد مقاومة شعبية من أهالي الإسكندرية، وعندما اقترب من القاهرة انهزم (المماليك) في أول معركة اصطدموا بها مع الفرنسيين؛ لأنهم كما وصفهم المؤرخ الجبرتي: «حريصون على حياتهم ورفاهيتهم، معتزون بجمعهم، محتقرون شأن عدوهم، مختلفة آراؤهم» دخل نابليون القاهرة وزين له جواسيسه أن يكتب منشوراً يتظاهر فيه بحب الإسلام لعله يخدع أهل مصر، وفعلاً أصدر منشوراً يقول فيه: «ما قدمت إليكم إلا لكي أخلص دينكم وحقكم من الظالمين، وإنني أعبد الله سبحانه وتعالى، وأحترم نبيه

محمداً والقرآن العظيم.. وجميع الناس متساوون..» إلى آخر الدجل الذي اكتشفه شعب مصر وعلماء مصر، ولم يصدقه أحد، لأن جنود نابليون كانوا يحرقون القرى في طريقهم وينهبون ما وصلت إليه أيديهم.

ثورة الأزهر:

بعد فشل القيادة السياسية ـ العسكرية أمام الغزو الفرنسي انتقلت قيادة الأمة إلى علماء الأزهر، وهذا شيء طبيعي، لأن العقلية الإسلامية متفوقة دائماً على انهيار العصر، والعلماء يعلمون دور الدين ورسالته في الحياة، وهؤلاء العلماء ما يزال فيهم أنفة وعزة وقول بالحق، ولم يبعدوا عن واقع الحياة ولم توضع بعد الخطط لإضعافهم كما حدث بعدئذ في عهد محمد علي باشا وعبد الناصر.

عرف نابليون هذا الأمر، وأن القيادة للعلماء، فاستدعاهم إليه؛ فلما استقروا نهض وبيده أقمشة بلون العلم الفرنسي، فوضع واحداً منها على كتف الشيخ الشرقاوي (كبير العلماء) فرمى به الشيخ على الأرض واستعفى وتغير لونه، فقال الترجمان: هو «نابليون» قصده تعظيمكم بوضع هذه الشارة، وبذلك يعظمكم الناس، فقالوا له: لكن قدرنا ينحط عند الله وعند المسلمين»[1].

ومع ذلك فقد شكل «نابليون» ديواناً لإدارة البلاد معظمه من هؤلاء العلماء الذين رموا شارته على الأرض، ورضوا هم بهذا أو أجبروا عليه؛

(١) الجبرتي، مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس/ ٥٩.

ولعل وجودهم يخفف من الشر. أما مشايخ الأزهر الذين هم أصغر سناً فقد قادوا ثورة ضد الفرنسيين، والعلماء الكبار (في الديوان) يعلمون هذا ويتسترون عليه، وأغلقت القاهرة أسواقها. وذهب وفد من السكان إلى القيادة يحتجون على الضرائب الجديدة، وعمت هذه الثورة كل المناطق شمالي القاهرة. وسمع أهل الحجاز بدخول الفرنسيين مصر فقام أحد العلماء ـ الشيخ الكيلاني وكان مجاوراً بمكة ـ يحرض الناس لمساعدة إخوانهم، وقدم منهم ستمائة من المجاهدين، وانضم إليهم أهل ينبع وجملة من أهل الصعيد وقاوموا الفرنسيين في جنوب مصر[1].

فوجئ بونابرت بهذه الثورة فأمر بأن تدك المدفعية الجامع الأزهر وما حوله من أحياء؛ لأن الأزهر كان يمثل قيادة الأمة، واستمر الضرب في منتصف النهار وحتى المساء، وتظاهر العلماء الكبار بأن لا دخل لهم بالثورة وطلبوا من «بونابرت» الهدنة والكف عن القتال، فاستجاب لطلبهم ولكنه اتخذها فرصة لتجفيف المنابع، وفي اليوم الثاني دخل جنود فرنسا الأزهر وهم راكبون الخيول، وكسروا القناديل، وهشموا خزائن الطلبة، ونهبوا الأواني، ورموا المصاحف على الأرض، وأعدم نابليون ثلاثة عشر من مشايخ الأزهر منهم الشيخ أحمد الشرقاوي، وعبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان (شيخ طائفة العميان) ومع أن كبار العلماء كانوا على علم بهذه الثورة، ولكن نابليون لم يسألهم ولم يحقق معهم وربما ظن أنه يستطيع من خلالهم تسكين الجماهير، بل طمع منهم بأكثر

---

(١) الجبرتي، مظهر التقديس / ١١٣.

من هذا وهو أن يصدروا فتوى للاعتراف بشرعيته وأن يحلف الناس له يمين الطاعة. يقول المؤرخ الجبرتي: «سكت العلماء وغلبهم الوجوم، وتكلم الشيخ الشرقاوي فقال له: تريد من العرب والمسلمين أن ينضموا تحت رايتك، فاعتنق الإسلام إذن». وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب الجنرال؟!

رجع نابليون إلى فرنسا وقامت ثورة ثانية في القاهرة يقودها العلماء وزعماء الشعب مثل السيد عمر النقيب وأحمد المحروقي، وقاوم الشعب مقاومة كبيرة، واستطاعت القيادة إنشاء المصانع لإصلاح الأسلحة، وصنع المدافع، وأقدم طالب أزهري من مدينة حلب على قتل القائد الفرنسي (كليبر) ورحل الفرنسيون بعد أن احتلوا مصر لمدة ثلاث سنوات.

* * *

[illegible]

... القاهرة، وسمع أهل الأزهر بدخول الفرنسيس ... [illegible]

[illegible] ... ورموا ... وكسروا ... وهتكوا حرمات الطلبة، ونهبوا الأواني، ورموا المصاحف على الأرض، وأعدم نابليون ثلاثة عشر من مشايخ الأزهر منهم الشيخ أحمد الشرقاوي، وعبد الوهاب الشبراوي والشيخ سليمان والشيخ ... العصيان، ومع أن أكابر العلماء كانوا على علم بهذه الثورة، ولكن نابليون لم يسألهم ولم يحقق معهم وربما ظن أنه يستطيع من خلالهم تسكين الجماهير، بل طمع منهم بأكثر

(١) الجبرتي، مظهر التقديس ١٠٢.

(١٥)

أبطال الريف

ظاهرة بشرية فريدة

العظماء هم القلائل الذين لا يمكن تعويضهم، لأن قدراتهم تكون موجهة لصالح أمتهم، موجهة لغاية سامية، إنهم يستطيعون تغيير شعب من حالة الضعف والتخلف إلى حالة القوة والتماسك وبعث الروح الإيجابية.

ومن هؤلاء العظماء الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ففي عصر لم تتعود فيه أوروبا أن تجد أمة إسلامية غالبة، قهر محمد بن عبد الكريم جيشاً كبيراً لأسبانيا، ولم يكن معه إلا قلة قليلة من الرجال.

يقول عنه الصحفي الأمريكي «فانسنت شين» بعد أن قابله في أحد الخنادق مدافعاً عن عاصمته «أجدير» ضد الغزو الفرنسي ـ الأسباني: «وصلت وسط عجيج من الغارات الجوية التي تقوم بها طائرات فرنسا وأسبانيا، ودخلت على عبد الكريم في خندق بالخط الأمامي، إن روعة شجاعته لا حدَّ لها، إيمانه بعقيدته لم يتغير على الرغم من الأخطار المحدقة به، إن هالات السمو والجلال تحيط به، وتزداد عظمته مع ظروف الرعب

والخطر الذي يحدق به، إنه لا يزال مرحاً باسماً، ليتني كنت أستطيع البقاء معه مدة أطول هنا لأزداد تأملاً وتفكيراً، ولأتعمق في دراسة هذه الظاهرة البشرية الفريدة أمامي..»[1].

في الجزء الشمالي من المغرب الممتد على ساحل البحر المتوسط والمسمى بالريف، وفي قرية «أجدير» ولد محمد بن عبد الكريم في صفر ١٣٠٠هـ ديسمبر ١٨٨٢م من أسرة تتمتع بمكانة كبيرة في العلم والدين والشجاعة، فوالده عبد الكريم زعيم الريف الأوسط، وزعيم قبيلته «بني ورياغل» وهو عالم أيضاً شغل منصب القضاء.

نشأ محمد في عصر كانت الدول الاستعمارية «بريطانيا، فرنسا، أسبانيا، إيطاليا» في حالة هستيرية في التنافس لاحتلال ما يستطيعون عليه في أفريقيا وآسيا، وأحياناً يتقاسمون الحصص؛ فقد أذنت بريطانيا لأسبانيا في احتلال منطقة «الريف» وكانت فرنسا قد احتلت الجزائر وتونس ثم المغرب. وكان والده عبد الكريم يراقب هذه الأحداث وهو مصمم على مقاومة هذا الاحتلال، ويعد ولده الأكبر لهذا الأمر، فأرسله إلى مدينة «فاس» لتلقي العلم الشرعي، ثم إلى مدينة «مليلة» لتعلم اللغات الأجنبية، وحتى يستطيع التعرف على الأسبان من داخلهم، سمح له والده بالعمل معهم، فعمل مدرساً للغة العربية، ثم في الصحافة والقضاء فوقف على خططهم وعقلياتهم وأخلاقهم، وبقي معهم ثلاث عشرة سنة كانت كما قال له ضابط أسباني: كموسى في قصر فرعون، ولم يكن

---

(١) محمد أمزيان، عبد الكريم وحرب الريف/ ٢٢٢.

مهتماً بالعمل معهم، ولكن والده كان يريد كسب الوقت، وكان الأسبان يدارونه ويحاولون كسب صداقته.

معركة ضد الفساد الداخلي:

رغم ما يحمل الشعب الريفي من صفات طيبة وفطرة سليمة إلا أن قبائل الريف كانت متفرقة متناحرة لهم عادات جاهلية من الأخذ بالثأر وقتل الأبرياء، والأسوأ في هذا أنهم كانوا في حالة يأس، ويتوقعون الاحتلال الأسباني في كل وقت. بدأ ابن عبد الكريم يشرح لهذا الشعب أهمية الاتحاد على الحق والدفاع عنه، وخطر الاستعمار الذي جاء للنهب والتحكم في المسلمين، وأن هذا المستعمر لا يعرف قيمة لدين أو خلق، وأخذ الخطابي عليهم عهداً أن يتركوا العادات الجاهلية، ثم بدأ يشرح لهم الدين الإسلامي بأسلوب مبسط، وبطريقة الإقناع والأمثلة الواقعية، مع ربطهم بالله وإعلاء كلمة الله. وهكذا تغيرت معالم الحياة من أساسها، ولم يكتف بهذا، والتفت إلى الجانب المادي، وأقنعهم بأهمية الزراعة، وتشجير الأرض والمحافظة على الغابات، وقال لهم: كل من يزرع شجرة ويعتني بها يعتبر مقاتلاً شجاعاً ووطنياً غيوراً.

استجاب الناس لهذا القائد الشجاع المتواضع الذي يعيش معهم ولا فرق بينه وبينهم، والذين رأوا مسكنه وأثاث بيته يشهدون على ذلك. وبهذا المجتمع المتواضع قاتل دولتين لمدة ست سنوات تحت ظروف مروعة من الحصار الاقتصادي والأسلحة الفتاكة.

معركة ضد الفساد الخارجي:

بعد هذا الإعداد الإيمانـــي والخلقـــي والاجتماعـــي قال لهم ابن عبد الكريم: «ألا تعلمون أن هذا كله سيبقى ناقصاً إذا انعدمت الحرية: وحريتنا يهددها الغزو الأجنبي، وإذا فقدنا الحرية فقدنا كل مقومات وجودنا، وبدأ الخطابي بخطوة جريئة وهي إقامة معسكر التجمع الوطني قريبا من حدود الريف الشرقي المحتل من قبل الأسبان. وبعد أسبوعين توافد عليه ثلاثمائة من كبار شخصيات الريف لمناقشة موضوع تحرير الوطن، ووافق الجميع على إعلان جمهورية الريف المستقلة. عرض الخطابي على قائد القوات الأسبانية الانسحاب من الريف قبل بدء المقاومة وعرض عليه الاستعداد للتفاهم فيما يتعلق بمصالح أسبانيا التجارية والاستفادة من الخبراء والفنيين، رفض «سلفستري» هذا العرض وقال: سأذهب لأشرب الشاي المنعنع في «أجدير» أراد عبد الكريم أم لم يرد جميع العبد كريمين في العالم. وهكذا قرر الريفيون تحرير بلادهم من الأسبان، وفي البداية لم يكونوا سوى (١٢٥) مقاتلا، وبعد مناوشات مع العدو ارتفع العدد إلى (٤٠٠) مقاتل، أما في الجانب الآخر فقد كان تحت قيادة (سلفستري) ثمانية عشر ألفاً من الجنود وفي الخط الثاني عشرة آلاف، وفي منطقة (أنوال) تحصن المسلمون في خنادقهم وعلى مدى ستة أيام كان الجيش الأسباني يصاب بالهزائم، وكان الخطابي يقاتل معهم ويبث الشجاعة والأمل فيهم ويقول لهم: سنهزمهم إن شاء الله لأنهم على الباطل، وفي اليوم السادس فقد القائد الأسباني أعصابه فأمر

ضباطه باستقبال الريفيين وجهاً لوجه، فحصدوا حصداً، وفروا لا يعرفون أين الملتقى، جيش بكامله يتمزق، وهرب سلفستري، ولكنه أصيب برصاصة فوقع على الأرض ثم قتل نفسه وانتهت الملحمة، ووصل الأمير إلى أرض المعركة والهتافات يتردد صداها: الله أكبر. سقط الجيش الأسباني كله (١٨٠٠٠) باستثناء (٨٥٠) سيقوا أسرى، وغنم الريفيون كل ما معهم من أسلحة وذخائر، إنه شيء يكاد ألا يصدق ولكنه الواقع الذي سجله التاريخ دون رتوش ولا زيادة.

دوّت أنباء هذه المعركة في كل أنحاء العالم، وعندما وصل الخبر إلى ملك أسبانيا قال: لقد سقط عرشي إلى الأبد، وقال السياسي البريطاني لويد جورج: «في (أنوال) سقط الاستعمار الأوروبي، ماذا حدث في الريف، إنه شيء غير طبيعي» كان وقع الهزيمة النفسي أكبر من حجمها المادي، فلم يكن أي جيش أوروبي قد ذاق مثل هذه الهزيمة الساحقة. كانت فرنسا تحتل القسم الأوسط والجنوبي من المغرب، ولم يعجبها هذا الانتصار، فبدأت تتحرش وتستفز أهل الريف، والخطابي يحاول ألا يصطدم معهم، ليتفرغ للريف وتحريره، ولكن عندما أصر الفرنسيون قرر الخطابي الدخول معهم في معركة التحرير أيضاً، وفُتحت الجبهة الجنوبية، وبدأت المعركة مع مواقع الفرنسيين في جبهة مفتوحة عرضها (٦٠٠كم) وصبر الريفيون صبراً يفوق الوصف، وتحملوا ما لا يطاق من البرد ومن قصف المدفعية والطائرات، وشهدت الجبال والقلاع أروع المعارك، وسقط سبعون من المعسكرات واضطربت فرنسا، وقامت وقعدت، وجاءت

بجنرالات وأبعدت آخرين وتحالفت مع أسبانيا، وأيدتهم بريطانيا سياسياً، وصمم التحالف الاستعماري على تحطيم ابن عبد الكريم، فحاصروا بلدته «أجدير» براً وبحراً، وثبت رجال الخطابي، مما جعل هذا التحالف يعمد إلى ضرب قبيلة بني وريا غل بالغازات السامة، وأخيراً اضطر البطل إلى التسليم حقناً لدماء شعبه، وكانت آخر وصية لأعوانه: تمسكوا بإيمانكم بالله وحده، لا أمان للمستعمرين، ولا دوام للخيانة، ولا حيلة مع إرادة الشعوب.

ونفي الخطابي إلى جزيرة في المحيط الهندي، ولكنه كان متفائلاً بأن الأسبان سيخرجون من الريف، وأن الفرنسيين سيخرجون من شمال أفريقيا. وكتبت جريدة (الديلي إكسبريس): «لقد نفي عبد الكريم، وسيطول الزمن حتى يأتي زعيم آخر، أو زعماء آخرون يزدرون بدولتين أوربيتين».

لم يسقط الخطابي، ويكفي أن نعلم أن عدد مقاتلي الريف لم يتجاوز الـ (١٥٠٠٠) في كل الجبهات يواجه (٢٢٠) ألف جندي أسباني و (٥٠٠) ألف جندي فرنسي. كان انتصار عبد الكريم مزعجا للغرب، يقول المارشال الفرنسي «ليوتي»: «أي انتصار على الغرب يعني قيام إمبراطورية عربية إسلامية على شاطئ البحر المتوسط، وهذا يعني فتحا إسلاماً لأوروبا من جديد وهو أمر لا يمكن التسليم به».

* * *

(١٦)

السنوسية في ليبيا

حفل القرن الثالث عشر الهجري ـ التاسع عشر الميلادي، بشخصيات إسلامية وحركات إحيائية، يهمها أمر المسلمين وما آل إليه من الضعف، وتبحث عن حلول للمشكلات الواقعة بهم، وكان من هؤلاء الرجال الشيخ محمد بن علي السنوسي (١٢٠٢ - ١٢٧٦هـ) (١٧٨٧ - ١٨٥٩م) مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا وما جاورها والتي تصدت للعدوان الإيطالي لأكثر من ثلاثين سنة .

ولد السنوسي في ناحية مستغانم من إقليم الجزائر، من أسرة علمية . وكان والده يجمع بين العلم والفروسية . تعلم السنوسي العلوم الإسلامية في بلده، ثم رحل إلى جامعة القرويين في مدينة (فاس) لإكمال ما يحتاجه من العلم، وهناك تخرج على يد علمائها . وكان الجو العام في فاس وغيرها يغلب عليه الطابع الصوفي؛ فتأثر الشاب بهذا الجو، ولكن الطابع العلمي العملي كان هو الغالب وكان اهتمامه بأمر المسلمين كبيرا، فلم يرض بالحياة الهادئة كمدرس في القرويين مثلاً، بل توجه إلى جنوب الجزائر واعظاً ومرشداً، ثم قرر الرحيل إلى مصر والحجاز، وفي طريقه

تعرف على أسر من أهل طرابلس وبرقة في ليبيا، وصل الشيخ إلى مصر عام ١٢٣٩هـ - ١٨٣٤م ولم يمكث طويلاً، ولم يكن مرتاحاً إلى حكم محمد علي باشا، غادر مصر إلى مكة، وهناك ملقى المسلمين في الحج، وملقى العلماء أيضاً، وطالت فترة بقائه في الحجاز (١٥ سنة)، متعلماً ومعلماً، واستقر رأيه من ناحية الدعوة على إنشاء الزوايا، وأن هذا سيعطيه فرصة لنشر التعليم في جميع طبقات الأمة.

كانت نشأة الشيخ علمية ـ صوفية، وقد حاول تعديل الصوفية إلى طريقة اجتماعية أخلاقية ودعوية جهادية، ورغم انتقاده في كتابه (المسائل العشر) لبعض مسائل الصوفية وطرقها إلا أن آثار الصوفية بقيت واضحة في عباراته وعبارات أبنائه مما يخالف منهج أهل السنة، وأما في الفقه فلم يكن مقلداً، فكان يخالف المذهب المالكي في الأمور التي يرى أنها مؤيدة بالدليل، وألف في ذلك كتاب: «إيقاظ الوسنان في العمل بالحديث والقرآن».

إن أبرز إنتاج السنوسي في الزوايا التي أنشأها هي الناحية العملية؛ فالجانب الأخلاقي والاجتماعي والاقتصادي كان بارزاً؛ فقد اهتم بالزراعة والمهن الصناعية، وكان يقول: «الكيمياء تحت سكة المحراث» «الدرر في غرس الشجر» وستكون النتائج التي هي أكبر من ذلك هو التصدي للعدوان الفرنسي والإيطالي. كان السنوسي في الخمسين من عمره عندما بنى أول زواياه في الحجاز، واستطاع خلال عشرين سنة تالية نشر دعوته في غرب الجزيرة العربية وشمال أفريقيا ومن الناحية السياسية لم يصطدم

مع الدولة العثمانية، بل أيدها وله مراسلات مع ولاة الدولة في ليبيا.

لقد طورت فكرة الزوايا، فأصبحت الزاوية نواة اجتماعية اقتصادية ودعوية؛ فهي مدرسة ومساكن للضيوف، وحفظ المؤن، وبستان ومتجر، وبنيت على أماكن مرتفعة، وتبعد عن بعضها مسافات معينة وكأنها حصون مهيأة للدفاع عن المسلمين، وأقيم بعضها في طريق القوافل التجارية، وتدرب التلاميذ فيها على العلم والصناعة والزراعة وركوب الخيل، والمشرف على الزاوية يسمى «المقدم» ويليه وكيل الدخل والخرج «الميزانية» ثم الشيخ الذي يقيم الصلاة ويعلم أولاد القبيلة، ويتبرع كل فرد من سكان الزاوية بحراثة يوم وحصاد يوم.

استقر الشيخ في إقليم برقة من ليبيا وأسس الزاوية البيضاء التي تسمى «أم الزوايا» ونجح الشيخ نجاحاً باهراً في استقطاب القبائل العربية، وأصبح زعماؤها تلامذة له، وكان يصلح بين القبائل ويعظهم ويرشدهم، ويأمرهم بترك العقائد الفاسدة والعادات القبيحة، ويأخذ عليهم العهود أن ينقادوا لأوامر شيوخ الزوايا، ويدخلوا أبناءهم ليتعلموا القرآن وأمور الدين.

انتقل الشيخ إلى واحة الجغبوب «باتجاه الجنوب في الصحراء» وكانت مأوى اللصوص، فلما استقر بها صارت مركز عبادة، وأسس مدرسة لتخريج الدعاة ومكتبة ضمت (٨٠٠٠) مجلد، وبلغ عدد طلاب المعهد العالي (٢٠٠٠) طالب تلقوا فيه دروس الدين والعربية والرياضيات

والتدريب العسكري.

امتلك السنوسي قدرة فائقة على تبسيط الأفكار للعامة؛ فانتشر العلم والاهتمام بالإسلام في كل المناطق التي أنشئت فيها الزوايا. وبعد وفاة الشيخ في واحة الجغبوب تولى زعامة الحركة ابنه محمد المهدي (١٢٦٠ – ١٣٢٠هـ) (١٨٤٤ – ١٩٠٢)م وفي عهده انتشرت الحركة بشكل واسع فبلغ عدد الزوايا في إقليم برقة (٤٩) وفي طرابلس (١٨) وفزان (٢٢) وفي تونس (٥) وفي مصر (٥) ووصلت الدعوة إلى قبائل (التبو) في أفريقيا، وإلى السودان الأوسط (النيجر، تشاد) واستمرت الدعوة في اجتذاب القبائل وخضوعها للشرع؛ فعندما انتقل محمد المهدي من الجغبوب إلى الكفرة (في أقصى الجنوب) كانت هدية القبائل للشيخ هي التسامح فيما بينهم، وتنازلهم عن الحقوق التي تؤدي للتنازع، وتنازلت قبائل (الزوية) عن ثلث ممتلكاتهم وقفاً لأعمال الحركة، وأصبحت الكفرة ملتقى القوافل ما بين تشاد والسودان وساحل برقة.

كان انتقال المهدي إلى الكفرة ليبتعد عن تأثير الضغوط التي كانت تمارسها الدول الأوروبية على الدولة العثمانية وذلك للحد من نفوذ الدعوة السنوسية. وليكون أيضاً قريباً من القبائل التي انتشرت الدعوة في صفوفها، والمجتمعات البسيطة أقدر على حمل الدعوة وأكثر اندفاعاً في تأييدها.

أصبحت السنوسية عقبة كبيرة في وجه الأطماع الأوروبية؛ فالحركة أوجدت مجتمعاً متآخياً وهيأت له وسائل الدفاع عن نفسه أمام العدو، ولا بد أن يزعج هذا فرنسا وتوسعها في أقاليم النيجر وتشاد.

إن أعظم عمل قامت به السنوسية هو مواجهة العدوان الإيطالي على ليبيا، إيطاليا التي كانت متلهفة مسعورة لاحتلال هذا البلد حتى يذكر اسمها كدولة استعمارية مثل بريطانيا وفرنسا، إنها عقدة إيطاليا التي كلفتها الكثير من الرجال والأموال واستعملت أحط الأساليب الوحشية والبربرية.

تولى زعامة السنوسية بعد محمد المهدي ابن عمه أحمد الشريف السنوسي (١٢٩٠ - ١٣٥١هـ) (١٨٧٣ - ١٩٣٣م) الذي قاد الشعب الليبي للجهاد ضد إيطاليا، وكان يقود المعارك بنفسه، مثل معركة (الجمعة) المشهورة في ١٦ / ٥ / ١٩١٢م وقاد أخوه صفي الدين معركة (القرضابية) التي انتصر فيها المجاهدون انتصاراً حاسماً، ولم يبق من الجيش الإيطالي سوى (٥٠٠) جندي، وفرَّ القائد جريحاً، وفي ١٢ / ٣ / ١٩١١ جرت معركة (الفويهات) حين أحاط الطليان بـ (٢٠٠) من المجاهدين في منطقة الفويهات والبركة فاشتدت الحرب وقاوم المجاهدون طوال النهار حتى الليل، و نجا منهم (٨٠) رجلاً، وأما الطليان فقتل وجرح منهم (١٥٠٠) بينهم (٢٨) ضابطاً، وأصيب بالجنون عدة ضباط من هول المعركة.

استمرت المقاومة بعد أحمد الشريف بقيادة القائد الشهير عمر المختار، وكان شيخاً لزاوية القصور، حيث قاد المجاهدين لمدة ثماني سنوات بنجاح كبير، وكبَّد الإيطاليين خسائر فادحة في معركة (الرحيبة) ومعركة (كرسة) هذا مع قلة العدد الذي معه وقلة العدة، والصعوبات البالغة التي كانت تحيط به من كل جانب، وأخيراً وقع في أسر القوات الإيطالية في ١١/٩/١٩٣١م وبعد محاكمة صورية أُعدم هذا البطل العظيم وهو على مشارف السبعين من عمره.

كانت قصة الجهاد في ليبيا قصة رائعة، سواء في ميدان الحرب أو في خضم السياسة، لأنها قصة تزخر بالبطولة الحية الصادقة.

يقول القائد التركي أنور الذي شارك الليبيين جهادهم ضد إيطاليا في فترة الحرب العالمية الأولى: «أشعر بالفخر لكوني قائداً لمثل هؤلاء الرجال».

* * *

(١٧)

فجر جديد

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

في الجزيرة العربية

في بداية القرن الثاني عشر الهجري والقرن الثامن عشر الميلادي كان العالم الإسلامي يئن تحت وطأة الجهل والتخلف في كل الميادين، لقد انطفأ في نفوس كثير من المسلمين نور الهدى، وغشيت التوحيد غاشية سوداء ووقع المسلمون في أنواع من الشرك انتهوا به إلى جاهلية كجاهلية العرب قبل الإسلام، واعتقد الناس في الأشخاص مما يسمونه (الغوث) أو (القطب)[1] معاني الألوهية ولكن لا يسمونهم آلهة، ويرون أن الأموات يستطيعون مساعدة الأحياء في الرزق والنصر والعافية، وكثرت الخرافات والبدع، وبُذلت الأموال على تشييد القباب على القبور، وشدت إليها الرحال، ونُحرت عندها الذبائح، بل عظَّم الناس الشجر والحجر، فالحلف عند الشجرة الفلانية أعظم قداسة من الحلف بالله وتبركوا بالجماد، فكان أهل بغداد يتبركون بمدفع عثماني ويأخذون أولادهم إليه ويطلبون من

---

(١) درجات رجال عند الصوفية يستغاث بهم عند الشدة.

المدفع إطلاق ألسنة أولادهم (المساعدة على الكلام).

وكانت الجزيرة العربية في حالة من التفرق شديدة، كل قرية أو منطقة لها أمير والعلاقة بينهم أقرب إلى العداوة، هذا عدا عن الخصومة بين البدو والحضر، فمن قدر من البدو على خطف شيء من الحضر فعل ذلك، والطرق غير مأمونة. في هذه الحقبة، والعالم الإسلامي مستغرق في سكونه إذا بصوت يدوي من قلب الصحراء في الجزيرة العربية، يوقظ المؤمنين، ويدعو الناس للرجوع إلى صفاء العقيدة ونقائها، إلى التوحيد الخالص، والعبودية الكاملة لله سبحانه وتعالى.

كان ذلك صوت الشيخ محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦هـ) (١٧٠٣ - ١٧٩٢ م) الذي جدد في هذا القرن ما اندرس من أمر الدين، وبارك الله في جهوده، وكان لها الأثر الطيب في كل مكان.

ولد الشيخ في بلدة (العيينة) من إقليم نجد في الجزيرة العربية، وكانت نجد في تلك الأيام فقيرة في مواردها، بعيدة عن مواطن الحضارة والمدن الكبرى، وهي بعيدة أيضاً عن الخضوع لحكومة مركزية. قرأ الشيخ العلم على والده الذي كان قاضياً، ثم رحل في طلب العلم إلى المدينة في الحجاز ودرس على يد علمائها ومنهم محمد حياة السندي، ثم رحل إلى البصرة في العراق وسمع فيها الحديث والفقه واللغة، وكان في نيته التوجه إلى دمشق ولم يتيسر له ذلك، فرجع إلى العيينة، وبدأ بنشر ما يدعو إليه من الرجوع إلى ما كانت عليه الأجيال الأولى في فهم الإسلام وتطبيق

شرائعه، وأنكر على الناس ما هم عليه في الشرك والبدع، ونفذ ذلك عملياً، فهدم القباب المبنية على القبور، وقطع الأشجار التي يتبرك الناس بها، وبدأت دعوته تثمر، ويلتف حوله طلبة العلم، وانتشرت في المناطق المجاورة، وشعر حكام تلك المناطق بخطورة دعوة الشيخ التي تنقذ الناس من الجهل، وتنقذهم من ظلم الحكام؛ فأمثال هؤلاء يودون لو يبقى الناس على عاداتهم الجاهلية وبعدهم عن العلم ليسهل استعبادهم وتسخيرهم لأهوائهم. ضغط هؤلاء الحكام على أمير العيينة وتم إبعاد الشيخ عن بلده، فاتجه إلى قرية (الدرعية) وأميرها محمد بن سعود، فاستجاب هذا الأمير للشيخ وبايعه على الكتاب والسنة ونشر الدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبدأ الشيخ بالكتابة إلى رؤساء البلدان في نجد وإلى أئمة المساجد والقضاة، فمنهم من استجاب له، ومنهم من أعرض واستهزأ وألف الكتب في التشنيع على دعوة الشيخ.

وكان الشيخ يرد على شبهاتهم وعلى رسائلهم كما كانت جيوش الأمير محمد بن سعود تتوسع في نشر الدعوة ومحاربة من يرفضها، حتى دان إقليم نجد وما جاورها من الأقاليم في شرقي الجزيرة، وعُمّر الشيخ حتى ناهز التسعين، وقرّت عينه بانتشار الدعوة وقبول الناس لها، وبعد وفاته وفي عام ١٢١٨هـ كانت الحجاز وغالب مناطق الجزيرة العربية قد توحدت تحت راية التوحيد.

إن الإصلاح الذي بدأ به الشيخ وهو إقامة الركن الأول والقاعدة الكبيرة التي يقوم عليه التصور الإيماني (التوحيد) هو البداية الصحيحة

لكل إصلاح وهو القوة المحركة للنظام الإسلامي كله؛ ففي التوحيد تنتفي شبهة الألوهية عن أي مخلوق: مَلَك أو رسول أو رجل صالح، فلا عبودية ولا خضوع إلا لله؛ فهذا التوحيد محرر للإنسان من سيطرة الكهنة والمتاجرين بالدين، وهو ثورة على كل محاولة لاستعباد الإنسان أو انتقاص كرامته، وهو الذي ينتزع كل أثر من آثار الهزيمة الداخلية في النفوس حتى تظل الأمة قادرة على التجديد، مؤمنة بالطريق الذي تسلكه عن طواعية واختيار وهذا التوحيد مضاد للتقليد الأعمى الذي هو عقبة من عقبات التجدد وهو الذي يُرجع الإنسان إلى سنن الله وقوانينه في الطبيعة، فلا يعيش المسلم على الأوهام والأحلام. وهو الذي يوحد شخصية الإنسان بين نوازع الروح ونوازع المادة ويقيم التوازن المطلوب. وهو توحيد عملي يهذب الأخلاق ويجعل الإنسان هادئ البال، مستريح الضمير لثقته بالله وصلته المباشرة به.

إن أعظم الذنوب عند الله سبحانه وتعالى أن تشرك معه في صفاته وأفعاله غيره من المخلوقات، كما جاء في الحديث عن أبي مسعود قال: قلت: يا رسول الله! أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله نداً وهو خلقك».

كان من آثار دعوة الشيخ أنها وصلت إلى أصقاع شتى عن طريق الحج واختلاط علماء الدعوة بالقادمين من العلماء والدعاة، فقد تأثر بعضهم بهذا التجدد ومالوا إليه ورجعوا إلى أقطارهم يحاربون الشرك والخرافة والبدع؛ كان ذلك من أكابر الدعاة في الهند واليمن والمغرب العربي.

(١٨)

في أحراش يعبد

هل هناك توافق بين اسم المكان (يعبد) وبين ما وقع على أرض هذه القرية الصغيرة من عمل يعد في صلب العبادة لله؛ وسيكون لهذا العمل أثر بالغ فيما بعد في الصراع على أرض فلسطين؟ إن اسم هذه القرية اسم جميل، وكأنه في اشتقاقه العربي مأخوذ من (العبادة) التي هي رمز العلاقة بين المسلم وبين ربه سبحانه وتعالى .

في هذه القرية كان أول صدام مسلح بين المسلمين واليهود، ولنبدأ القصة من أولها : إن أرض فلسطين جزء من بلاد الشام، وفيها القدس والمسجد الأقصى الذي بارك الله فيه وفيما حوله . تعرضت هذه المنطقة بعد الحرب العالمية الأولى لمشروع استيطاني احتلالي يهودي تحت رعاية وتعاطف بريطانيا التي كانت دولة منتدبة (وصية) على فلسطين من قبل عصبة الأمم . بدأت الهجرة اليهودية تزداد، وشعر الفلسطينيون بالخطر لكثرة أعداد المهاجرين وشرائهم للأرض واستقرارهم، ثم تهريب الأسلحة والتدرب عليها .

قاوم الزعماء السياسيون هذه الخطوات بالاحتجاج والشكوى لدى

الحاكم البريطاني على فلسطين ولكن دون جدوى.

إنها قصة صراع طويل منذ أن جاء (نابليون) لاحتلال مصر ثم ارتداده عند أسوار عكا في فلسطين، ثم مجيء بريطانيا وفرنسا وتقسيمهم لبلاد الشام ووضعها تحت الوصاية، وكان شعوب هذه المنطقة لا تستطيع أن تقوم بنفسها. قاوم السوريون الاحتلال الفرنسي لبلدهم وكان من الذين حملوا عبء المقاومة عالم ديني من مدينة (جبلة) الواقعة على ساحل البحر المتوسط، إنه عز الدين القسّام (١٨٨٠ – ١٩٣٥م) ولكن فرنسا استطاعت بسط نفوذها على سورية، وحكمت على الشيخ وغيره من الزعماء بالإعدام. فخرج القسام من سورية متوجهاً إلى فلسطين عام ١٩٢١م واستقر في مدينة حيفا، ومن حيفا كانت البداية: كان مشروع الشيخ واضحاً، وهو تحرير الوطن من الاحتلال الأجنبي، وفي حيفا عمل في التدريس، وخطب في مسجد الاستقلال، وكان يهيئ النفوس ويعدها لمقاومة الأعداء. سكن في حي شعبي فقير، معظم سكانه من العمال والفلاحين الذين اضطروا إلى بيع أراضيهم بسبب فداحة الضرائب والديون. وكان الشيخ يعلمهم دينهم، ويجلس معهم ويزورهم، فألفوه وألفهم، وأحبوه وأحبهم، وشاركهم أفراحهم وهمومهم، واهتم بالفقراء، وسعى جاهداً لمحو الأمية من بين صفوفهم. كانوا على الفطرة السليمة، وكانوا أحب إليه من الزعماء السياسيين الذين يحضرون حفلات المندوب البريطاني، ويتمنون على بريطانيا أن تعطيهم حقوقهم.

أقام القسام علاقات قوية مع أهالي قرى الشمال وكان يزورهم

ويعلمهم ويدعوهم لمقاومة بيع الأراضي لليهود، وكان يرى في هؤلاء الفلاحين علامات القوة والشجاعة، والبعد عن الترف وأنهم أقرب إلى الإيمان والتضحية، بل كان يرى فيهم أنهم أقوى بنية وأكثر احتمالاً للمشاق والمتاعب؛ فغالبية الذين انضموا مع القسام لتحرير الوطن من المحتلين هم من العمال أو الفلاحين أو أصحاب المحلات الصغيرة، وإن واجب الذكرى لهؤلاء التلامذة أن نذكر بعض أسمائهم:

١ – فرحان السعدي: جندي من جنود الدولة العثمانية، عمل بعدئذ في سلك الشرطة، ثم استقال ورجع إلى قريته (المزار) وهو من الأبطال الشجعان.

٢ – حسن الباير: فلاح من قرية (برقين) يقول: كنت قبل أن أتعرف على الشيخ القسام أسرق وأرتكب المحرمات، فنهاني الشيخ عن ذلك وعلمني الصلاة.

٣ – نمر السعدي: فلاح من قرية (شفا عمرو).

٤ – العبد قاسم: بائع (للكاز)[1] في حيفا.

٥ – خليل محمد عيسى: بائع في دكان صغير في حيفا، إلى عشرات ومئات من تلامذته ومؤيديه.

---

(١) من مشتقات البترول.

بدء قتال العدو:

في عام ١٩٢٨ ادعى اليهود أن لهم حقاً تاريخاً في حائط البراق وهو الحائط الغربي من المسجد الأقصى، فقامت المظاهرات من المسلمين احتجاجاً على هذا الادعاء، ولكن تلامذة القسام رأوا أن الشكاوى لا تنفع، وأن الإنكليز وعصبة الأمم لا يسمعون للضعفاء، وقرروا مقابلة القوة بالقوة وتحرير الأرض المقدسة.

خطب الشيخ آخر خطبة له في حيفا، وأحس الحاضرون بالوداع وأجهشوا بالبكاء، وودع الشيخ أهله، وكذلك فعل الذين سيذهبون معه للقتال وباعوا كل ما يملكون ليشتروا به عتاداً للمقاومة، واتجه الجميع نحو قرى الشمال التي كانت تعرف الشيخ وتلامذته، ووصل المجاهدون إلى قرية يعبد، واتخذوا أحراشها[1] مكاناً لهم، وكانت الخطة تحريض الناس وتجميعهم والتهيؤ لمعركة طويلة مع المحتلين، ولكن أخباراً وصلت إلى حاكم فلسطين البريطاني بأن هناك أناساً مسلحين في الشمال، فأرسل (١٥٠) من أفراد الشرطة وتعجل بالصدام حتى لا يجتمع حول الشيخ أعداد كبيرة، وفي صباح ٢٠/١١/١٩٣٥م دارت معركة كبيرة، واستبسل الشيخ والذين معه، واستمرت المعركة إلى منتصف النهار، استشهد الشيخ القسام على أثرها وخمسة من رفاقه وجرح آخرون.

كانت معركة يعبد أول مواجهة بين مسلمي فلسطين والاحتلال

---

(١) غابات كثيفة.

الإنجليزي الصهيوني، كانت معركة صغيرة ولكن آثارها كبيرة جداً، لقد أعادت الثقة والأمل إلى نفوس أهل فلسطين، وعلموا أن استجداء الحقوق من العدو لا يجدي نفعاً. كانت معركة يعبد مقدمة لثورة كبيرة ستقوم ما بين ١٩٣٦ – ١٩٣٩، وسيقودها تلامذة القسام.

كتب أحد زعماء فلسطين: إن أشد ما يؤسفني أنني تلقيت خبر استشهاده ونحن جلوس؛ فخجلت من أن نحرم من ميتة كميتته. وقال آخر: «إننا لا نؤبن ملكاً ولا زعيماً ولا رئيساً، ولكن رجلاً من صميم الشعب، شغل دولة بأسرها». وكتب رئيس تحرير صحيفة الدفاع: «في يعبد لنا جامعة، لنا أساتذة، لنا شهداء».

* * *

(١٩)

ذوو اللحى الشقراء

(انتصارات البحرية الإسلامية)

نُكب المسلمون في الأندلس بعد أن قاتلوا عن كل بلدة وكل حصن، غير طامعين بأدنى مساعدة من الخارج. وسقط آخر حصن للمسلمين (مدينة غرناطة) عام ١٤٩٢م، وأجبر المسلمون على الهجرة، وأما الذين بقوا في الأندلس فقد تعرضوا للتنصير بالقوة ولمحاكم التفتيش. كانت فاجعة لم يتحسسها كثير من المسلمين في المناطق الأخرى، ولكن المسلمين القريبين من أهل المغرب والجزائر وتونس تطوعوا للمساعدة. وكان من نتائج ذلك أن زادت ضراوة الأسبان وانفتحت شهيتهم على الاحتلال، وأول الانتصار يغري بآخره، وبدأت حملات بحرية وراء حملات لم تنته إلا بعد قرون. وكانت مدن الساحل المغربية والجزائرية هي المطمع لأسبانيا والبرتغال، فاحتلت البرتغال مدن: سبتة وطنجة وأصيلا على الساحل المغربي، واحتلت أسبانيا المرسى الكبير (وبجاية) و(وهران) من مدن الساحل الجزائري. وفي وهران دارت مذبحة رهيبة داخل المدينة سقط فيها أكثر من (٤٠٠) مسلمة ومسلم، ورغم ذلك استمرت فلول المجاهدين

في المقاومة لمدة خمسة أيام حول المسجد الكبير ولم يتوقف القتال حتى قضي على المجاهدين، وانطلقت القوات الأسبانية تقتل وتأسر وتنهب، وزاد عدد الأسرى عن ثمانية آلاف وهذا مثال لما فعلته أسبانيا في كل المدن الأخرى.

في هذه الفترة توحدت كثير من مناطق أوروبا (أسبانيا، النمسا، هولندا، بلجيكا..) تحت قيادة (شارلكان) ملك أسبانيا (١٥٠٠ - ١٥٥٨م) وأسست الاكتشافات الجغرافية في الأرض الجديدة (أمريكا) قاعدة مادية للتقدم الأوربي، فاجتمعت القوة المادية وملك قوي (شارلكان) والبابا إسكندر السادس (بورجيا) الذي كان ينسق بين دول أوروبا ويعقد المعاهدات والتحالفات، ويقابل ذلك دول صغيرة أنهكتها الحروب الداخلية في تونس والجزائر والمغرب. كان الوضع خطيرا ومأساوياً.

جاء الأمل وبصيص الضوء من أخوين كانا يعملان في البحر يحبان المغامرات والمخاطرات، وكثيرا ما ساعدا بالسفن القليلة التي معهما على هجرة المسلمين من الأندلس، كانا شابين من أسرة تركية ولدا في جزيرة (مدلي) بالقرب من الساحل التركي، ركبا البحر وأتقنا فنَّ قيادة السفن، والذي بدأ بهذه المغامرات الأكبر واسمه (عُروج)، والثاني (خسرف) وسماه المغاربة خير الدين. وقد أطلق الأوروبيون عليهما اسم (بربا روس) أو ذوي اللحى الشقراء. واشتهر بهذا الاسم الثاني منهما خير الدين بربا روس (١٤٧٠ - ١٥٤٧) م وبعد مغامرات في البحر اتفقا مع حاكم

تونس على اتخاذ قاعدة بحرية (حلق الوادي) على الساحل التونسي لتكون منطلقاً لأعمالهما.

بعد أن احتل الأسبان مدينة (بجاية) على الساحل الجزائري، شعر أهل بجاية بقوة هذين الأخوين فاستنجدوا بهما، وقد لبّى الأخوين النداء، واجتمعت قوة إسلامية بحرية وبرية لمحاصرة هذه المدينة، ولكنها لم تنجح لقوة استحكامات العدو، فتوجه عُروج إلى مدينة (جيجل) وكانت أول مدينة ساحلية يحررها عَروج، سمع أهل مدينة الجزائر بقوة عُروج وأخيه وإخلاصهما في تحرير المدن الإسلامية، فجاؤوا يطلبون المساعدة لتحصين المدينة قبل مجيء الأسبان لاحتلالها، ولبّى عروج مرة ثانية نداء أهل المدن الساحلية، فجاء بالقوات البرية وأخوه بالقوة البحرية، واستقبل في الجزائر استقبال الفاتحين، وبايعه أهل الجزائر أميراً للجهاد. كان ذلك عام ٩٢٢هـ - ١٥١٦م.

حاولت أسبانيا في السنة نفسها احتلال الجزائر ولكنها أخفقت إخفاقاً ذريعاً، وانتصر المسلمون بقيادة عروج على الجيش الأسباني، فجاء أهل تلمسان يستنجدون لتخليصم من سلطانهم الخائن (أبو حمو الزياني) الذي يعتمد على الأسبان ويساعدهم، وكانت فرصة لتحرير الغرب الجزائري وتوحيده مع العاصمة. ودخل عُروج بجيشه من الأتراك والجزائريين إلى تلمسان ولكنه حوصر من قِبَلِ الأسبان، ودافع عن المدينة في معركة قاسية استمرت ستة أشهر، وبسبب التفوق الساحق للأسبان قرر الانسحاب لتجميع الصفوف مرة ثانية، ولكن القوة الأسبانية حاصرته ولم

يبق معه إلا عدد قليل من رجاله، وأخيراً بقي وحده وقاتل بعناد وتحولت إلى مبارزة مع القائد الأسباني (غارسيا دي لابلازا) وسقط الاثنان بضربتين قاتلتين.

كان لقتل عروج رنة أسى في صفوف المسلمين، ولكنها لم تفل من عزيمة أخيه خير الدين، وبايعه أهل الجزائر على إمارة الجهاد وقرر الاستنجاد بالدولة العثمانية، واستجابت الدولة وأرسلت مدداً كبيراً من السفن والسلاح.

قرر الملك (شارلكان) أخيراً أن يقود المعركة بنفسه لاحتلال الجزائر، فجهز حملة كبيرة جداً، تضم (٣٠) ألفاً من المقاتلين وبينهم متطوعين ونبلاء من ألمانيا وإيطاليا، حملتهم (٥٠) سفينة ما بين حربية ومدنية، واستنجد شارلكان بالقائد الإيطالي المشهور (أندوريا دوريا) الذي تولى قيادة القوة البحرية. وقد بارك البابا يوحنا الثالث هذه الحملة على بلاد المسلمين. وفي فجر ٢٣ أكتوبر ١٥٤١م نزل الإمبراطور شارلكان على أرض الجزائر، وطوق المدينة وحاصرها وحاول إقناع أهلها بالاستسلام، ولكن المجاهدين أصروا على المقاومة وتدفقت على المدينة فرق من المقاتلين المجاهدين تناوش الجيش الإمبراطوري، وانهزمت الفرقة الإيطالية أمام صمود هؤلاء المجاهدين وشدة بأسهم، واضطربت أحوال الجيش الأسباني، وقد ضرب المسلمون السفن، وجاءت أمطار شديدة وعواصف عاتية بحيث لم يستطع (أندوريا) مساعدة الإمبراطور، بل نصحه بالإنسحاب، وفعلاً انسحب شارلكان إلى مدينة ساحلية قريبة، وأمضى

(١٤) يوماً في مدينة (بجاية) وغادرها في ١٦ نوفمبر ١٥٤١م، وبلغت خسارة الأسبان (١٧٠) سفينة و (٢٠٠) مدفع و (١٢) ألف مقاتل. وتقديراً لهذا النصر العظيم أصبح خير الدين قائداً عاماً للأسطول العثماني كله، ولكنه ظل يمارس القيادة الفعلية ومهاجمة المدن الأسبانية وجزر البحر المتوسط، ولم يعش بعد ذلك طويلاً؛ وتوفي في استانبول عام (١٥٤٧) رحمه الله. استطاع هو وأخوه عُروج مجابهة الهجمة الأوروبية في أشرس مراحلها واستطاعت مدينة الجزائر الصمود أمام قوة أوروبا.

لقد أظهر عروج وخير الدين بطولة ليس في الجانب العسكري فقط؛ بل في الجانب السياسي حينما ارتفعا بالأحداث إلى موقعها الحقيقي من حرب دفاعية محدودة إلى مستوى المغرب العربي كله إلى ارتباط بالدولة العثمانية لتكون القضية إسلامية عالمية.

إن أوروبا – على طريقتها المعتادة – كانت تسمي هذين الأخوين عُروج وخير الدين، تسميهم (قراصنة) وكان اسم (بربروسا) يثير الرعب في قلوب أهل أوروبا لمدة طويلة، ولكننا نحن نعلم أنهما مجاهدان في سبيل الله، لم يطلبا رئاسة ولا مالاً من أهالي المدن المغربية، وكانا بطلين من أبطال الإسلام.

* * *

(٢٠)

الأعمال الكبيرة
تجربة ابن باديس

في عام ١٩٣١م تأسست في الجزائر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وكان هذا العمل من أبرز الأعمال وأنجحها في نهضة الجزائر في العصر الحديث، واستقلالها عن فرنسا. كان هذا بعد مرور قرن كامل على احتلال فرنسا للجزائر (كانت بداية الاحتلال عام ١٨٣٠م) وبعد أن ظنت فرنسا أن الجزائر قطعة منها وإلى الأبد، وأنها تابعة لفرنسا ثقافيا وسياسياً. احتفلت فرنسا عام ١٩٣٠م بمرور قرن كامل على احتلالها لهذا القطر الإسلامي، وأرادت أن يكون هذا الاحتفال لمدة ستة أشهر، ودعت إليه دول العالم، وقال أحد ساسة فرنسا في هذا الاحتفال: « لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مئة سنة؛ فقد أقام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه، إن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام في هذه الديار » وكتب الكاردينال (لافيجري) بهذه المناسبة: « إن عهد الهلال في الجزائر قد ولّى ».

أرادت فرنسا سلخ الجزائر عن هويتها ولسانها العربي، فمنعت تدريس

التاريخ الإسلامي، والمدرسة التي تريد تعليم العربية تحتاج إلى إذن من الحاكم العسكري، ومنعت تفسير القرآن في المساجد وصادرت الأوقاف الإسلامية وألحقتها بأملاك الدولة، وحولت بعض المساجد إلى كنائس، وبعضها إلى مرافق دنيوية، وهدم بعضها لإنشاء الشوارع والساحات. إن صنع فرنسا هذا جعل الشعب الجزائري يعود إلى الأمية العلمية بعد أن كان أكثر الجزائريين عام ١٨٣٠م يحسنون القراءة والكتابة، وكان في العاصمة وحدها مئة مدرسة. وكان في كل قرية مدرسة[١]. وكانت الجزائر قوية أيضاً في اقتصادها، ولكن الماريشال (كلوزيل) نهب عشرات الهكتارات من الأراضي الخصبة بعد أن قتل أصحابها أو نفاهم من بلادهم. لقد فعلت فرنسا في الجزائر ما لم تفعله دولة محتلة مع شعب مُحتل، حتى إنها استنكرت أن يصلي أهل الجزائر صلاة الغائب على الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر الجزائري الذي توفي في دمشق، مع أن فرنسا تقيم مئات التماثيل لتخليد ذكرى قوادها وكبرائها، ولكنها تقاوم صلوات على رجل خدم أمته.

لم يمت الشعب الجزائري، وإن كانت حركته لمقاومة فرنسا قد هدأت بعد عام ١٨٧٠م، والأمة الإسلامية أمة ولود وليست عقيماً؛ فمن عائلة كبيرة ذات تاريخ عريق في الجزائر جاء الشيخ عبد الحميد بن باديس ليعيد إلى الأمة روحها. في مدينة قسنطينة في شرقي الجزائر ولد ابن باديس عام ١٨٨٩م، وفي جامعة الزيتونة تخرج ورجع إلى الجزائر بعد أن اتفق هو

---

(١) عثمان خوجة: مرآة الجزائر/ ٦ نقلا عن كتاب: «قصة نكث العهد» لميشال هابار.

وصديقه ورفيق جهاده الشيخ البشير الإبراهيمي على خطة واضحة لإنقاذ الجزائر من براثن فرنسا. يقول الإبراهيمي عن الفترة ما بين (١٩٢٠ – ١٩٣١م): كنا نتلاقى فنزن أعمالنا بالقسط، ونزن آثارها في الشعب بالعدل، وكانت مقدمة لتأسيس جمعية العلماء.

إنه عمل كبير جداً؛ ولكن ابن باديس بدأه بداية بسيطة: تدريس الدين والعربية، وتفسير القرآن في مساجد قسنطينة، حتى إذا نضجت الفكرة وتهيأت الأمور تأسست جمعية العلماء، وأسندت رئاستها إلى الشيخ ابن باديس ونائبه الإبراهيمي. ولم تقم هيئة علمية منظمة من علماء أحرار مستقلين في بلد آخر مثلما قامت في الجزائر، وكانت فرنسا تعتقد أن المسلمين لا يضطلعون بالأعمال العظيمة، فخاب ظنها، وفي عام ١٩٣٨ احتفلت الجزائر ولمدة أسبوع بختم تفسير القرآن للشيخ ابن باديس هذا التفسير الذي امتد لمدة خمس وعشرين سنة، وكان حدثاً يستحق هذا الاحتفال.

اجتمع علماء الجزائر على اختلاف طبقاتهم ومن كل الجزائر، واتحدوا على أهداف واضحة محددة، ومن أعظم إنجازات هذه الجمعية:

١ – محاربة البدع والخرافات، وتطهير عقائد الإسلام وعباداته من الانحراف والضلال.

٢ – إحياء تاريخ الإسلام.

٣ – الشروع العاجل في تعليم العربية للصغار، ودعوة كل المتخرجين

من الزيتونة للمساهمة في هذا العمل.

٤ – إبراز فضائل الإسلام: إيثار العزة والنفور من الذلة، بذل المال والنفس في سبيل الدين، نشر التآخي بين أفراد المجتمع، ومحاربة الرذائل التي شجعها الاستعمار.

٥ – المطالبة باستقلال المساجد والأوقاف عن الدولة وإلحاقها بالجمعية.

٦ – أنشأت الجمعية الصحف والمجلات لتبصير الشعب بحقوقه وواجباته، كما أنشأت آلاف المدارس وبعض المعاهد العليا.

وأعلن الشيخ ابن باديس رداً على فرنسا: «إن الأمة الجزائرية ليست هي فرنسا، ولا يمكن أن تكون فرنسا، ولا تستطيع أن تكون فرنسا ولو أرادت، لأنها بعيدة في لغتها وأخلاقها وعنصرها ودينها...» وأصبحت الجمعية هي روح الجزائر، فإذا ذكرت الجزائر ذكرت الجمعية، حتى إذا شعرت بقوتها واجتماع الناس حولها، وبرز منها القادة والعلماء، شاركت في الأمور السياسية ثم كان مقاومة بالقوة. ثم كان الاستقلال عن فرنسا.

بدأ ابن باديس عمله بداية سهلة لينة، وانتهت صارمة ممتنعة، لم يفطن لها المستعمر الفرنسي أول الأمر وظنه شيخاً مثل باقي الشيوخ الذين يدرسون الأطفال في المساجد، ولكنه كان الرجل الذي ينحت في الصخر تحت خرير الماء الهادئ حتى أتى على الصخر وأزاله من طريق الأمة.

المحتويات

الموضـــــــوع	الصفحـة
المقدمة	٣
(١) من دخلها كان آمناً (دخول مكة)	٧
(٢) فتح الفتوح (نهاوند)	١١
(٣) محطم الصنم الأكبر (سومنات)	١٥
(٤) الإحياء السني	١٩
(٥) العلماء والأمراء	٢٥
(٦) المدارس النظامية	٣١
(٧) الثمرة الشهية	٣٧
(٨) الابتلاء	٤١
(٩) « فلنعم الأمير أميرها » فتح القسطنطينية	٤٥
(١٠) صقور القوقاز	٤٩
(١١) الملك الصالح محيي الدين أورنك زيب (عالمكير)	٥٥
(١٢) الإصلاح الإسلامي في الهند	٦١
(١٣) حركة أحمد بن عرفان الشهيد	٦٧
(١٤) الجامع الأزهر	٧٣
(١٥) أبطال الريف ظاهرة بشرية فريدة	٧٩
(١٦) السنوسية في ليبيا	٨٥
(١٧) فجر جديد دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الجزيرة العربية	٩١
(١٨) في أحراش يعبد	٩٥
(١٩) ذوو اللحى الشقراء (انتصارات البحرية الإسلامية)	١٠١
(٢٠) الأعمال الكبيرة ، تجربة ابن باديس	١٠٧

مطبعة الأهرام بكورنيش النيل